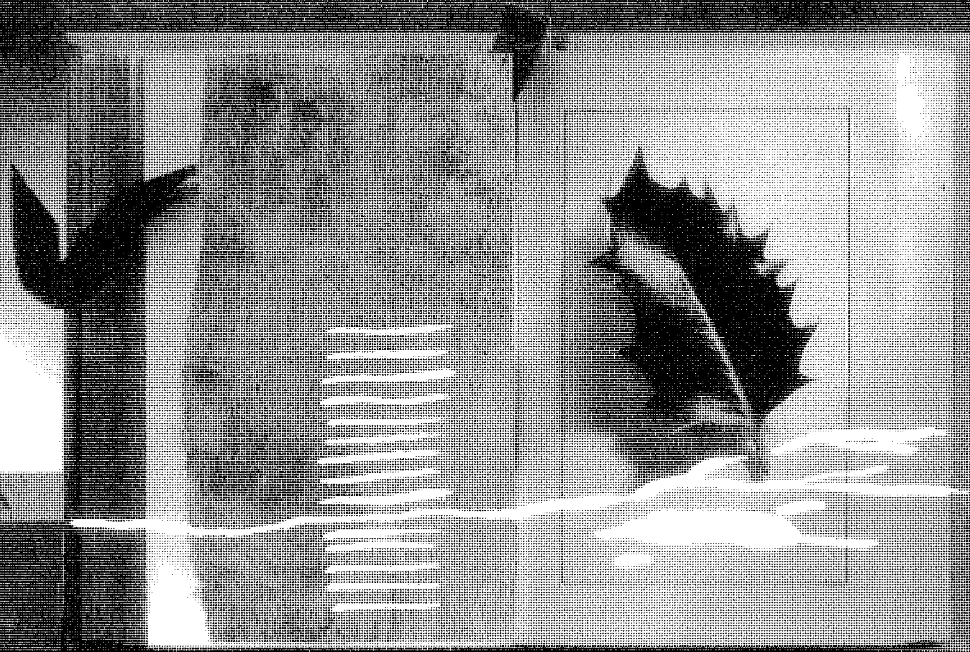
القرآن



أصول التربية وعلم النفس



دار الملتقى للنشر

القرآن
أصل التربية وعلم النفس

القرآن
أصل التربية وعلم النفس

أحمد جهان الفورتـــيه



دار الملـتـقى للنشــر

الطبعة الأولــى:

1994 م

الناشر:

دار الــملتقـــى للطبــاعة والنشر

لــيـماسول ــ قبرص

ص. ب: 6527

المحتوى

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

المقدمة

هذه المحاولة التي اقدمها لأخي القارىء الكريم هي محاولة متواضعة دفعني إلى القيام بها ما لاحظته من خلال اطلاعي على بعض كتب التربية وعلم النفس أن كثيراً ممن تناولوا هذا العلم بالدراسة والبحث كانوا مقتنعين بأن وضع قواعده قد تم على يد علماء الغرب، ولم يقف هذا الاقتناع داخل دائرة الباحثين والدارسين بل انتقل إلى أبنائنا الطلبة عن طريق المناهج الدراسية التي ما فتئت تؤكد ـ بإصرار ـ بأن فضل السبق كان لأولئك العلماء.

ولقد كنت أستغرب عندما أقف مع أبنائنا الطلبة على بعض النقاط في مقرراتهم: كطرق التدريس، والتربية وعلم النفس، فألمح الإصرار على ما ورد فيها بادياً لا يقبل التحوّل، ولهم في ذلك عذرهم: فهي مقررات المناهج الدراسية.

أما أنا، فأجد نفسي مضطراً إلى تذكيرهم بأن أصول هذا العلم موجودة في القرآن الكريم، فما عليهم إلا أن يرجعوا إليه للاغتراف من معينه واستخراج كنوزه التي لا ينفذ لها مدد:

﴿ قُل لَّوْ كَانَ ٱلْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَٰتِ رَبِّى لَنَفِدَ ٱلْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَٰتُ رَبِّى وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِۦ مَدَدًا ﴾(1)

ولعل القارىء يجد في ثنايا محاولتي هذه قبساً من دليل يهديه إلى أصول ذلكم «العلم» فقد بذلت قصارى جهدي في الكشف عنها من خلال القصص القرآني ومواقف الرُسل مع قومهم مبرزاً بعض القضايا الإنسانية التي تمسّ النفس مسّاً مباشراً فتكشف أبعادها.

ثم عمدت إلى توضيح بعض خصائص المنهج القرآني في تناوله لتلك القضايا، فمنها:

1 - إن المنهج عندما يسوق الأمثلة يسوقها في ثوب يثير الإعجاب؛ ليوقظ في النفس غريزة «حب الاستطلاع».

2 - إن المنهج يؤثر أن تكون الوسيلة التعليمية ـ في الغالب ـ خارجة عن محيط ذات المتعلم لكي تتاح له فرصة التمكن من المشاهدة والإلمام بالكليات.

3 - يستخدم المنهج عناصر البيئة لإبراز المعاني وتشخيصها لينبّه العقل إلى أن منافذه الكاشفة لتلك الحقائق إنما هي الحواس.

4 - يختار المنهج النماذج الإنسانية ذات التجارب المفعمة بألوان الكفاح لتكون قدوة يُقتدى بها. وهذه الخاصية من أهم الركائز الأساسية في مجال التربية والتعليم.

5 - المنهج القرآني يتعامل مع الواقع البشري ولكنه لا يقر التمادي والغلو في الآفاق البشرية.

6 - المنهج يحيط بالنفس البشرية في مختلف مواقفها في مجالات الحياة.

7 - يتجنب المنهج الحرج ويسلك قاعدة التيسير والرفق.

(1) سورة الكهف، الآية: 104.

وفي الختام أود أن أنبِّه إلى أن ما ذكرته إنما هو قطرة من بحر أرجو أن تكون - إن بلغت مقدار قطرة - توطئة لغيث عميم يغمر ساحة الدارسين والباحثين ممن تخصصوا في مجال التربية والتعليم؛ ليصبح منهج القرآن الكريم رائداً ومصدراً.

«وما توفيقي إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب».

المؤلف

1991 م

تعريف علم النفس

إن علم النفس كعلم مستقل متميز من غيره لم يظهر إلا متأخراً؛ فقد ظلّت جهود الباحثين تبذل منذ القرن الثامن عشر إلى القرن التاسع عشر حيث برز علم النفس ككائن حي له هيكله وجسمه، وعندئذ وقف شامخاً يرتاد كل الميادين، ويغشى مجالات الحياة؛ لإنه العلم الذي يتناول بالدرس والبحث والتحليل خلجات النفس البشرية متتبعاً خطواتها في رحلتها إلى أن تصبح عملاً، وحركة، وحياة.

فبحث هذه الظواهر هو ما يعرف اليوم بـ «علم النفس»، إذن ما هو «مدلول النفس»؟:

وقديماً قيل عن حقيقتها: إنها الجوهر الحق، أما الجسم بالنسبة لها فلا يعدو كونه وعاء ومحلاً تستقر وتحلّ فيه كما يحلّ الماء في الإناء.

ومن العلماء من رأى أن الجسم أصل لكل ألوان النشاط الحيوي من فكرٍ وحسٍّ وإدراكٍ وتذكرٍ وانفعالٍ، وليست النفس إلا انعكاساً لمثل هذا النشاط الصادر عن الجسم.

وقد ورد ذكر النفس في القرآن الكريم في مواضع كثيرة فبلغ أربع عشرة وثلاثمائة مرة.

أما مدلولها في القرآن ـ حيث وردت ـ فإنه يتحدّد بسياقها ولا يخرج في وضوحه عن كونه يشمل الذات والنفس معاً حيث مستقر العقل والعقل منطلق الحركة الفكرية، ومناط التكليف وهو ذو الإرادة المميزة المختارة التي ألهمت طريقَيّ: الخير والشر ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ۝ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ۝ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ۝ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا﴾[1].

والنفس قد تطمئن فتفوز بخيرَيّ: الدنيا والآخرة، فترضى بثواب ربها حيث تنال رضاه.

أما التي تكثر اللوم؛ فهي دائماً تبحث عن الأفضل وتسعى حثيثاً لتحصيل ما يسعدها في الدنيا والآخرة.

وحيث تقف الذات موقف المتبرىء من النفس لكثرة أمرها بعمل السوء وإلحاحها المتكرّر وانجذابها نحو الشهوات الواقعة في دائرة الشرّ قد يحدث عندئذ الانفصال وعدم الانسجام والتناسق. ففي هذه الحال يؤذن لعوامل التقويم والتربية أن تتدخّل وتبحث بشتى الطرق عن الوسائل التي تحمل بين طيّاتها عناصر التوجيه المثمرة.

المدرسة القرآنية:

ومن ثم ندرك ـ جازمين ـ أن المدرسة القرآنية التي تربى فيها رسولنا محمد صلوات الله عليه قد وضعت منذ البداية ـ بداية الدعوة ـ أسس المبادىء النفسية لتكون منهلاً ينهل منه البشر، ومنارة يهتدي بنورها السائرون على درب الهدى واليقين. فمحمد عليه السلام لم يكن يعرف مما سيقدم إليه في تلك المدرسة، ولكنه هُيىء حتى يكون على استعداد.

بدئت إرهاصات النبوة بالرؤيا الصالحة، وقد لزم «غار حراء» يتعبّد فيه الليالي ذوات العدد في خلوته تلك، وفي فصله المدرسي ذاك وجبريل عليه السلام يباشر مهمته التعليمية الأولى ينزل؛ ليعلم محمداً كيف يقرأ؟

(1) سورة الشمس، الآيات: 7 ـ 10.

ومحمد لم يكن يعرف القراءة ولم يكن في حياته قد أمسكت يمينه بالقلم، ولم يكن في مقدوره في تلك اللحظة أن يعرف عمن طلب منه أن يقرأ شيئاً.

استفسارات متنوّعة، ورغم ذلك يظلّ جبريل منذ اللقاء الأول يكرر كلمة ﴿إقرَأ﴾ وفعل الأمر مقتضاه: أن ينفذ المطلوب ما طلب منه: أن يقوم، أن يتحرّك، أن ينطق، أن يؤدّي أي شيء، ولكن محمداً لم يمكنه إلا أن يرد: «**ما أنا بقارىء**».

لحظات تمرّ خفافاً أم ثقالاً؟ لا أحد يدري غير أن اليأس لم يجد سبيلاً الى النفوس، ثم يقرأ محمد: ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ۝١ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ ۝٢ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ۝٣ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ۝٤ عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾[1].

في هذا الموقف كررت كلمة القراءة عدة مرات؛ ليكون التكرار قانوناً يحكم الربط بين المؤثّر والاستجابة، وليزداد الشوق والتشويق حتى يبلغ أقصى درجات التلهف إلى ما تتوق إليه النفس المتعطشة إلى الاطلاع على دروب المعرفة الإلهية.

ومن خلال هذا القلق، تتمّ عملية الوحي في جوٍّ من المعاناة والضغط حيث يخرج منها النبي وجبينه يتفصّد عرقاً، وجسمه يرتعد؛ ليحسّ بعد ذلك بأن للإعداد لمثل هذه المهمة لذة ومتعة يدركها المُعَدُّ حيث يقف لتأدية الرسالة التي أنيطت به.

ومن ثم ندرك ـ مع الفارق ـ مدى صعوبة العملية التعليمية دراسة وزمناً؛ فقد استغرق نزول القرآن مدة ثلاث وعشرين سنة وبالقياس ـ إن صح ـ نستطيع أن نقول: إنها المدة التي ينهي فيها الطالب مرحلة تعليمه العالي «الجامعي».

---

(1) سورة العلق، الآيات: 1، 2، 3، 4، 5.

ولقد كان يتخلّل هذه المدة فترات ينقطع فيها الوحي على النبي: محط زمني؛ لينبّه النفس البشرية إلى تأكيد وترسيخ عنصر التشويق الذي استخدم كعامل مهم جدًّا، بل ضروري - في مجال التعليم يفتتح به المعلم درسه؛ لينجذب طلابه إلى ما يقول - فيكون بذلك أشدّ انتباهاً وأعمق يقظة.

وقد يكمن عنصر التشويق هذا في مشكلة من المشكلات التي تمسّ واقع الانسان المعاش، عندئذ يبرز الجانب التطبيقي بالممارسة العملية في إبان وقوعها، حيث تلفت النظر وتوقظ العقل وتحرك الوجدان، وتثير التساؤلات والاستفسارات ذات الدلالات المعرفية التي قد تتفرّع منها ألوان متعددة تهدى - ملحة - إلى التطلع المتلهف إلى قبسات الحل الإلهي.

القرآن والمشكلة:

من القرآن ما كان لنزوله سبب: وهو وقوع المشكلة التي تعترض حياة المسلم؛ فيقف عندها العقل البشري حائراً؛ فلم يجد لحلها من سبيل ولا ملجأ يلجأ إليه سوى أن يهرول ساعياً إلى النبي سائلاً شاكياً، وما عند النبي من جواب غير أنه يملك الترقب والانتظار وربما تطول الوقفة أو لا تطول، ولكنها وقفة المتعلّم تحمل في طياتها التوتر والقلق:

إنها اللحظة التي تسبق لحظة الوصول إلى الهدف والهدف إنما يعني: الارتياح والغبطة بلذة الظفر باكتشاف المعرفة من بين حنايا المجهول.

والنظرية التربوية الحديثة تقول:

«إن الانفعال والتوتر الخفيف ضروريان للعملية التعليمية» حقيقة لا ينكرها أحد؛ فهي في نفسه، يشعر بها قلقاً وتوتراً إذا استغلق عليه أمر أو عجز عن إيجاد حل لمشكلة.

فالمشكلة إذن هي امتداد للحياة المنتجة، وهي أيضاً أم التفكير والدافع القوي إلى استخدام العقل، والمنبّه الحقيقي له من غفوته ولو لم توجد لركد وخمل.

ففي القرآن الكريم أمثلة كثيرة تؤكد منهجه التربوي: منها: هذه «خولة بنت ثعلبة» تأتي النبي شاكية سائلة تعرض مشكلتها التي تتلخّص في أن زوجها «أوس بن الصامت» قال لها - وهو في حالة غضب - «أنت عليَّ كظهر أمي» وكان هذا القول في عرف الجاهلية يحرم الزوجة تحريماً أبديًّا. المشكلة وقعت، والنبي لم يجد حلاً سوى قوله: - «ما أراك إلا قد حرمت عليه».

وخولة لم تقتنع فظلت تراجع وتحاور وتجادل وتشتكي إلى الله والله يسمع المحاورة والمجادلة إلى أن نزل الحل واكتمل الحكم قرآناً يُتلى ونصًّا مفصّلاً يرجع إليه البشر في قضاياهم الاجتماعية:

﴿ ۞ قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِي تُجَٰدِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِيٓ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَآ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعُۢ بَصِيرٌ ﴾(1).

وهذا «هلال بن أمية» يرجع من أرضه عشاء فيجد من زوجته ما يسيء فينطلق إلى النبي قائلاً يا رسول الله: - لقد رأيت بعيني وسمعت بأذني، ولكن النبي يقول له: «البينة أو حدّ فيه ظهرك».

وماذا يفعل هلال؟ أي بينة هذه والأمر قد انقضى؟ الحد إذن؟

ويصرّ هلال على موقفه مخاطباً رسول الله: «والذي بعثك بالحق إني لصادق ولينزلن الله ما يبرىء ظهري منُ الحد».

فنزلت آية اللعان تبرئة لظهر هلال وتأكيداً لصدقه: ﴿ وَٱلَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَٰجَهُمْ وَلَمْ يَكُن لَّهُمْ شُهَدَآءُ إِلَّآ أَنفُسُهُمْ فَشَهَٰدَةُ أَحَدِهِمْ أَرْبَعُ شَهَٰدَٰتٍۭ بِٱللَّهِ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴾(2)

بذلك هدأت نفس هلال وسلم ظهره وتقبل الحكم بارتياح، فالحل الإلهي قد أتى بمثابة **البلسم**: فكان عميق الأثر في نفس هلال كما جعله شديد الإحساس بقيمة الصدق، فياض الشعور بالاعتزاز والثقة بالنفس؛ فهو كجائزة

(1) سورة المجادلة، الآية: 1.
(2) سورة النور، الآية: 6.

قدّمت للمتعلم والمعلم لتؤكد العلاقة بين الاستجابة والارتياح، وكومضة من ومضات التوجيه الإلهي التي ترشدنا إلى رفعة وسمو هذا المبدأ النبيل، مبدأ اللين والحكمة والجدل الهادىء الرفيق لتستميل القلوب نحو تقبّل ما ترى فيه النفع والفائدة والنجاة، وتستجيب النفوس لما يُلقى إليها من جميل القول وحسن التوجيه: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ﴾[1].

قاعدة التدرج في التربية:

تتمثّل هذه القاعدة التي أُقرّت كمبدأ أساسي في العملية التعليمية في كونها تبدأ بالسهل ترويضاً للنفوس إلى أن تصل في مراقيها أعلى درجات السلم التعليمي.

وإن أسمى منهج تربوي قد سلكه القرآن الكريم في هذا المجال حيث تدرّج في أحكامه خطوة خطوة مراعياً في ذلك مدى إلف الناس لعاداتهم الاجتماعية ومقدار امتزاج نفوسهم بها، كتحريم الخمر مثلاً؛ فقد كانت زينة مجالسهم، ومصدر علاقاتهم وسبيل أُنسهم، ودعامة متينة من دعائم صداقاتهم، مدحوها في أشعارهم، وأثنوا عليها في أدبهم واعتبروها ملهمتهم روعة الفن ورقة العاطفة. كانوا يرون أن سعادة حياتهم بها ولها؛ لذلك نرى القرآن الكريم تجنّب أن يصبّ حكم التحريم دفعة واحدة: لأن مدرسة التربية الإلهية تحرص كل الحرص على ملاينة المربَّي وأخذه بالرفق والحسنى ليأنس إلى المُتلقى عنه طيب النفس راضياً.

فقد روي الإمام أحمد عن أبي هريرة قال:

«قدم رسول الله ﷺ المدينة - وهم يشربون الخمر ويمارسون الميسر - فسألوا رسول الله عنها، فنزلت الآية:

(1) سورة آل عمران، الآية: 159.

﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا وَيَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلِ الْعَفْوَ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ﴾[1].

قال الناس: - ما حرمت علينا إنما قال: - إثم كبير. وكانوا يشربون الخمر حتى كان يوم فصلّى رجل من المهاجرين وأمّ الناس في صلاة المغرب فخلط في القراءة.

فأنزل الله آية أغلظ منها:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنتُمْ سُكَارَى حَتَّى تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ﴾[2].

ثم نزلت آية أغلظ منها أيضاً:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾[3].

ثم يرد التعقيب بقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ﴾[4].

إذن؛ فالمشكلة قد حلّت حلاً نهائياً بعد أن أرقت المسلمين وشغلت أذهانهم فترة زمنية مرت بدقائقها وساعاتها مثقلة بالقلق والحيرة والترقب والانتظار.

إذ الآية الأولى وردت إجابة عن سؤال ملح نابع من قلوب يعمرها الإيمان؛ قارنت وقاست وقدّرت تقدير من ينشد استيفاء المعلومة واستكمال حيثيّات

---

(1) سورة البقرة، الآية: 217

(2) سورة النساء، الآية: 43.

(3) سورة المائدة، الآية: 92.

(4) سورة المائدة، الآية: 93.

الحكم، فوجدت بعد هداية أن الإيمان الكامل لا يلتقي مع الخمر والميسر والأنصاب والأزلام.

كيف يلتقي الطهر والنقاء مع الرجس في مكان واحد؟ في وعاء يحمله المؤمن؟

النظرة الذكية السليمة أدركت هذا فكانت الإجابة: ﴿فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا﴾[1].

إنها التهيئة والاستعداد، تلك هي المرحلة الأولى، بُدىء الدرس فتفتحت أذهان كثير من الصحابة، تنبهوا إلى خطر هذه العادة على إيمانهم فأقلعوا وابتعدوا عن مواقع الشبهات وتجنبوا أمّ الخبائث.

أما من لم يستفد من بداية الدرس، فإنه قد وقع في محظور، إما لأن الحكمة الإلهية اقتضت ذلك؛ ليكتمل الدرس أو أن تمكّن العادة تلك قد كان متنوعاً في مستواه.

وعلى أية حال، فإن الذي وقف بين يدي الله في صلاته لم يدر ما يقول.

من أجل ذلك ينتقل الدرس الإلهي إلى المرحلة الثانية ليضيق الدائرة الزمنية على من لا يرى أن الأمر لم يحسم بعدُ.

﴿لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنتُمْ سُكَارَىٰ حَتَّىٰ تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ﴾[2].

ويستمر الدرس في متابعة القضية. فمرحلة الحسم النهائي تأتي بعد التهيئة الكاملة التي جعلت النفوس تتلهف لحل المشكلة كما ارتآه الدرس الإلهي حيث خُتم كما بُدىء بالتشويق، منافع في أول اللقاء ثم فلاح وفوز في الوداع.

إنها التربية الإسلامية والمنهج المتكامل الذي يتلاءم مع النفس البشرية في صعودها وهبوطها، ونموها وتوقفها، ورفضها وخضوعها، وحركتها وسكونها، وقلقها وهدوئها.

---

(1) سورة البقرة، الآية: 217 .

(1) سورة النساء، الآية: 43.

إن المنهج يضعها في المحكّ العلمي حيث تجابه مشكلات الحياة لتدرك قيمة القلق الإيجابية الظافرة بالنصر وتعي جيّداً كل احتمالات الفشل؛ لتتغلّب على عوامله، وتسبر عمق الحياة بما فيه من متناقضات.

ولقد جاء علم النفس بتحليلاته فأثبت بأن للقلق قيمة إيجابية بالإضافة إلى آثاره السلبية؛ فهي عامل منشط إذا لم يتجاوز الحد المعقول.

إن المتعلّم إذا ووجه بواجبات صعبة تراءت له من خلالها بوادر الفشل؛ فإنها - حتماً - ستدفعه إلى مضاعفة الجهد والمثابرة وتركيز كل قواه العقلية ليستخلص لنفسه جائزة النجاح في مسيرة حياته الفُضلىٰ.

ومنهج القرآن الذي سلك مسلك التدرّج واليسر والسهولة فقد عمد أيضاً إلى متابعة النفس البشرية لتحيا في اتّزان يكفل لها الصحة والعافية حيث صبغ أحكامه بصبغة الموعظة والنصح والإرشاد.

إيقاظاً للضمائر، وحفزاً للهمم: يذكر العقاب الأليم ثم يسجّل في مقابل ذلك الثواب الوفير والجزاء الحسن حتى يكون المرء بين الخوف والرجاء معتدلاً متزناً في عواطفه وأمزجته، كابحاً لغرائزه، يوجهها إلى فعل الخير ويصرفها فيما يُرضي الله.

ووقوف المرء بين جانبي الخوف والرجاء هو ما اصطلح عليه العلماء المحدثون بتسميته «الصحة النفسية» فقد ذهبوا إلى أنها:

«التآلف والتوافق مع المجتمع في القيام بالمسؤوليات والإنتاج» وما ذلك إلا ثمرة من ثمار التأرجح بين الخوف والرجاء الذي يوفّر للفرد المعادلة والقوة اللازمة للانطلاق والخلق والتمتع والتكيّف.

موقــف القرآن من الغرائز

الغرائز:

هي قوى فطرية أودعها الله في الكائنات الحيّة لحفظ بقائها وإعدادها للنضال في بيئتها وتهيئة سبل العيش لها؛ فهي في الحيوان: ناطقاً وغيره. وإن

كانت في غير العاقل لا تقبل التهذيب ولا التعديل تؤدي وظيفتها تبعاً لدورها الذي رسمته لها الحكمة الإلهية.

أما في الإنسان، فهي قابلة للتعديل والتهذيب؛ لأن الإنسان قد كُرِّم وشُرِّف بحمله الأمانة رغم مشقّتها وثقلها.

ومن الغرائز التي يجب أن تنطلق؛ لتدفع الظلم وتكبح جماح الشر، غريزة الغضب عندما يكون المحرّك والمثير لها انتهاك حرمة من حرمات الله؛ فموقف الغاضب هنا موقف إصلاحي محمود الأثر ممدوح العواقب.

أما فيما عدا ذلك؛ فإن التوجيه القرآني يُوجِّه المسلم إلى كظم غيظه، بحيث يحول دون ظهور آثاره المدمرة؛ فهو لا ينفي في علاجه صفة الغضب في جانبه الانفعالي الذي لا يمكن تعديله حيث سبر أغوار النفس البشرية فوجه تقويمه للجانبين: النزوعي والإدراكي.

وهذا ما أشار اليه علم النفس حين حلّل النفس بغرائزها، فوصل إلى النتيجة التي تؤكد مبدأ إمكان تعديل الغرائز في جانبيها: النزوعي والإدراكي.

أما الجانب الانفعالي، فإنه لا يقبل التغيير: غير أن الأثر الناتج عن الانفعال - وهو المسمى بالنزوع - هو الذي يطرأ عليه التغيير والتعديل كما أن الإدراك الذي هو وليد الحواس يتغيّر كذلك.

والقرآن الكريم يوضح هذا المبدأ في منهجه التربوي، حيث جعل صفة كظم الغيظ من صفات المتقين، والتقوى هي الصحة النفسية التي تعني بمفهومها: الوسطية والاعتدال، فلا تطرف إلى حد الخطأ، ولا تذبذب إلى حد الإحجام، لا إفراط ولا تفريط. وقد سجلت الآية الكريمة هذه المعلومة بأسلوب بليغ مشوق، افتتحت بطلب المبادرة التي تدفع النفس الى التطلع، وتحرّك فيها غريزة حب الاستطلاع، تحفزها إلى السباق للظفر بما هو معد معروض:

﴿ ۞ سَارِعُوٓا۟ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ۝ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِى ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَٱلْكَٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾(1).

اشتملت الآيتان على ثلاث دعائم تربوية تحمل في مفهومها قوى نفسية ثلاثاً:

1 - الإنفاق في الحالتين قوة وإرادة صلبة تقف في مواجهة عوامل الشح الكامنة في الإنسان وتقهر أنانيته المقيتة.

2 - حبس الغيظ قوة تكبح جماح الغضب، فلا تدعها تفلت لتدمِّر وتخرّب.

3 - ويأتي بعد ذلك العفو، وهو قوة أشد القوى الثلاث وأمضاها سلاحاً؛ لأنها تمحو آثار الغضب النفسية وتطهرها من درن الحقد، وتنقّي القلب من شوائب البغض وسخائم الأثرة، وتمنح المجتمع الجو الطبيعي الذي تنمو في تربته القيم الرفيعة، وتسود ساحته أخلاق القرآن مُثُلاً حية لتنير جوانب الحياة وتوجه الأجيال الصالحة، خُلُقاً وديناً وعِلماً وتربية تسير في كنف القرآن تكلأُها تعاليمه السمحة التي رسمت لـ «غريزة الجنس» إطاراً يكفل للمجتمع السلامة والصحة والطهر والعفاف والنمو الطبيعي، حيث السكن والرحمة والمودّة في محضن الزوجية وعش السعادة.

ومن الواضح لدى الجميع أن الغريزة الجنسية هي من أهم الغرائز، إن لم تكن هي الأساس الذي ينبني عليه البناء الإنساني، فمنذ أن وجد الإنسان على هذا الكوكب الأرضي - وهو يسعى - مدفوعاً بدافع حب البقاء الى ربط حلقات سلسلة امتداده في هذه الحياة، ولن يجد من سبيل يحقق له هذا الهدف سوى التكامل الجنسي، ومن ثم عكف الفلاسفة والباحثون على دراسة هذه الغريزة فكان لها من وقتهم وجهدهم أوفر نصيب.

---

(1) سورة، آل عمران، الآيتان: 133، 134.

فمنهم من رأى كـ «فرويد» أنها مدار الحياة كلها ومنبع المشاعر الإنسانية بلا استثناء حتى حركة الطفل الرضيع صبغها بصبغة الجنس.

ولا أحد ينكر ما لهذه الغريزة من أهمية، ولكن لا أحد يوافق «فرويد» على مغالاته هذه التي بلغت درجة الشذوذ.

وعلى أية حال، فإن الدراسات التي أجريت حولها والقوانين التي وضعت لتنظيم علاقة الذكر بالأنثى كانت من السعة والعمق بحيث لا تُحصى ولا تحاط علماً، وقد أشارت بعض الدراسات إلى أن الغريزة التناسلية تتفرّع منها ثلاث غرائز أخرى:

الأولى، تتمثل في الاتصال الجنسي.

والثانية، تتصل بالجانب الروحي بين الزوجين، الميل القلبي وما ينشأ عنه من مودّة وامتزاج روحي.

والثالثة، وهي الانتماء الأسري وما ينشأ عنه من شفقة وحنان نحو أفراد الأسرة.

هذه العناصر الثلاثة تتكوّن منها الرابطة الأسرية، والرافد الذي يغذّي ينبوع السعادة تحت مظلة الحياة الهانئة الكريمة التي يسودها الوئام والانسجام.

أما إذا فُقِدَ عنصر من هذه العناصر فإنه يقع كبت للمركب المفقود الذي يؤدي - إن لم يجد العوض كالانصراف إلى بعض الهوايات التي تملأ فراغ هذا النقص - إلى الإصابة بالأمراض المعروفة «بالقلق العصبي». ومن ضمن أسباب هذه الأمراض عدم إرواء الغريزة الجنسية من ينابيعها الثلاثة.

المنهج القرآني ومراعاة الميول

القرآن الكريم سلك في تنظيمه مسلك التربية التي تحدد ميول النفس البشرية، ورغباتها فوضع أسسه في إطار المسؤولية التي تجعل من الفرد عضواً

صالحاً في بناء الأمة بتحمله جزءاً من أعباء الجماعة، حيث يكون منها كالعضو من سائر الجسم، يحس بشدة ارتباطه وقوة تماسكه.

فالتوجيه القرآني يهدف إلى وضع النفس في موقع سموها وتشريفها لتحقق كرامتها التي أرادها الله لتشعر بميزتها من سائر المخلوقات الأخرى المسخّرة الخادمة. ولا ريب، فإن المخدوم - في الأغلب الأعم - إنما ينال الشرف بميزة فيه، والقرآن إنما يدخل إلى أعماق النفس؛ ليسجل بأسلوبه التربوي الأسس التي تتكوّن منها الأسرة؛ لأنه لا يريد من الغريزة الجنسية أن تنطلق انطلاقها العابث المدمّر الذي لا يجني المجتمع من ورائه سوى الدمار والفناء.

﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾[1].

الآية في سوقها للمعلومة تقرر:

1 - وحدة الخلق، وهذه اللفتة تنبّه النفس إلى أصالة النشأة حتى تحسّ بالاطمئنان من تلقي الدرس الذي يشتمل على الدعائم التي يقام عليها صرح الأسرة.

2 - بعد التهيئة والتمهيد خلصت الآية الى السكن. والسكن هو الميل المؤنس الذي يصدر عنه الحنان والعطف.

3 - ثم المحبة والرحمة، وهاتان الركيزتان هما اللتان تسمو بهما الحياة الزوجية، وينمو التمازج النفسي والتوافق الروحي، حيث يتم التآلف والانسجام في جو من التفاهم والتعاون، وتنبيه العقل في الختام إلى استخدام الفكر فيما اشتملت عليه الآية من علامات دالة على قدرة الله الحكيم العليم.

ثم يتسامى المنهج في تدرجه ليكمل ملاحقه ربطاً محكماً لحلقات

---

(1) سورة الروم، الآية: 20.

الانسجام الأسري ﴿أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ الرَّفَثُ إِلَىٰ نِسَائِكُمْ هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ﴾[1].

والملابسة هنا إنما تعني الستر والدفء وحفظ الحياة الآمنة التي تفضي إلى النهوض بمستوى الأمة ورقيها في شتى المجالات. ومن ثمارها تماسك لَبِنَاتِ الأسرة لتمنح للمجتمع جيلاً يُسهم في بناء حضارة الأمة وتقدمها.

ولقد عبّر القرآن أيضاً عن معنى الملابسة هذه بعبارة تسمو بلاغتها عن كل قول إذ يذكر الحرث:

﴿نِسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ فَأْتُوا حَرْثَكُمْ أَنَّىٰ شِئْتُمْ وَقَدِّمُوا لِأَنفُسِكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّكُم مُّلَاقُوهُ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾[2].

فالقرآن يؤثر لفظة الحرث ليوجه الانتباه إلى:

1 - موضع النبت كالأرض التي تستنبت.

2 - الفائدة المرجوة من ثمار هذا النبت.

3 - العناية به والسهر للمحافظة على رعايته عبر مراحل نموه.

4 - الاستعداد النفسي قبل الإقدام على المهمّة التي ترك في تنفيذها اختيار الكيفية بعد تحديد موضعها.

5 - ختام الدرس، الأمر بالتقوى والتذكر باللقاء والبشارة بالخير العميم لمن يعي الدرس ويفهم محتواه ويطبقه، وهو يدرك أن ما رُسم إنما هو قبس من لدن المنهج الإلهي الذي لم يقف في تربيته للنفس البشرية عند معالجة جانب واحد، بل راعى مختلف الحالات التي تعتريها: إذا وقع تنافر كان الحل ولكنه حل قد يكون مؤقتاً، فقد يقيّد بفترة زمنية ربما تلتئم النفوس

(1) سورة البقرة، الآية: 186.

(2) سورة البقرة، الآية: 221.

خلالها فتؤوب، إنها الفيئة الواعية الناتجة عن يقظة النفس وإدراكها لتعود إلى تصحيح موقفها.

وما أكثر ما تُصحّح المواقف!

ويمضي المنهج الإلهي في خطواته العلاجية متتبعاً ميول النفس ارتفاعاً وانخفاضاً، إنه يُقحم الحقوق الاقتصادية كوسيلة علاجية، لأنها تعتبر من أهم العوامل التي تدفع النفس إلى الرضا والاستكانة، فهي ذات سحر قوي في استمالتها ووقع عنيف في عزوفها إذا ما حُرمت؛ لأنها جُبلت على حب التملك.

وتلك غريزة أودعها الله في النفس؛ فكانت ذات دفع عارم لحركة الحياة في صراعها المستمر من أجل التدافع البشري؛ لتعمر الأرض ولينفسح المجال لراية العدل أن ترتفع، ولصرح الحق أن يقام، ولولا ذلك لما كان للحق دولة ولا للشر جولة، حيث لم يكن للدنيا بقاء. أما والغرائز باقية فلا بد من بقاء التوجيه، والتوجيه منهج يحوي البذور التي تتلاءم ومنعرجات النفس في انطلاقتها وجموحها وجزعها وهلعها وكنودها وجحودها، حتى لا تطغى ولا تهن ولا تسأم ولا تمل؛ لكي تتّزن في سيرتها حتى من حيث حبها وكرهها؛ فإن القرآن يضع لها مصدراً من المصادر الثابتة التي ينبعث منه التشريع الإلهي.

فالحب لوجه الله لا يتجاوز هذه الدائرة. والكره إنما يقع فيما يغضب الله.

وليس من الإنصاف أن نبالغ في كلتا الحالتين، إذا كان الموقف يستدعي ذلك، على أن يكون هذا الحب في المرتبة الثانية بعد حب الله ورسوله.

﴿۞ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ ٱلَّذِينَ عَادَيْتُم مِّنْهُم مَّوَدَّةً وَٱللَّهُ قَدِيرٌ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾[1]. إذن، فجانب الاعتدال مطلوب، والموقف المتّزن ينبغي أن تلتزم به

(1) سورة الممتحنة، الآية: 7.

النفس كالتزامها بمسار المنهج القرآني منبعاً ومصبًّا، استفادة من دروسه واستجابة لتوجيهاته الرشيدة وحكمته البالغة.

إن حب التملك غريزة تصاحب الإنسان منذ طفولته المبكّرة وتظلّ تخطو معه في خطوات نموه حيث تتنوّع حاجاته تبعاً للتطور الذي تفرضه ضرورة الحياة.

ولقد وضع المنهج القرآني خطوطاً واضحة للتخفيف من حدّة هذه الغريزة. فقد أباح التملّك وحثَّ على السعي، ولكنه قيّد طرقه بإطار مشروع، إن يكن قد ذم الحب الجم للمال؛ فهو في المقابل مدح الذين يتغلّبون على شح النفس، وفي الوقت نفسه يجعل الظفر بالبر إنفاق مما تحبه، وإلى جانب هذا يحرص القرآن على تنويع وسائل الإيضاح لتربية النفس. فيذكّرها بوخامة عاقبة الترف، ويضرب لها الأمثلة الحية الموغلة في واقع الحياة، كإهلاك من أطغاهم حب المال، ولأن المال فتنة فإنه يقود إلى الظلم والعصيان.

فقارون بغىٰ على قومه؛ لأن كنوزه أعمته، ولأن ذهبه زيّن له حب شهوة الظلم والكبر ولذة البطر، فاعتقد أن ما امتلكه إنما يرجع فضله لذكائه وحذقه وعلمه الغزير بضروب الربح وتدبيره الواعي بأنواع الاستثمار.

ولما نصحه ممن يكنُّون له المودّة ويتمنّون أن يكون ذا استجابة لدعوة الخير شمخ بأنفه وركب رأسه وسخر مستهزئاً:

﴿قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِيٓ﴾

ولقد تضمّن الدرس تأكيد المعلومة حيث ازدادت وضوحاً بضرب الأمثلة التي انطوت على ما يثير كوامن النفس الخيّرة ويدفعها إلى التوقف للنظر الفاحص فيما حولها وفيما خطته من خطوات نحو نقطة الاعتدال.

وهذا التوقّف يُعتبر المرحلة الأولى من مراحل استيعاب الدرس وتنمية العقل التي تتمّ بطرق ثلاث:

1 - بتهذيب قوى الملاحظة المميّزة.

2 - بتقوية ملكة المنطق لتمكن الفرد من تتبع الحجة من نقطة لأخرى.

3 - ثم بالعمل على جعل القدرة على المقارنة - أي الحكم على الأشياء حيث تقترب من النضج التام.

منهج القرآن في ضرب الأمثال:

إنه يعتمد اعتماداً دقيقاً على توضيح الجانبين: السلبي والإيجابي أو المضيء والمعتم، وذلك للإحاطة بجوانب الموضوع وجذب النفس البشرية إلى التعمق داخل حنايا الدرس؛ لتتفاعل مع أحداثه حيث تنتقل من الشيء إلى ضده.

والانتقال الذهني عامل من العوامل المساعدة لترسيخ المعلومة وإثارة الرغبة في فعل الخير. وقد أجمع علماء التربية على أن الرغبة إذا انطبعت في النفس فسرعان ما تتحول إلى عقيدة، ثم ترسب فكرة العقيدة في العقل الباطن وتذوب فيه حتى يؤمن بها إيماناً عميقاً، ثم يقذفها الإلهام الذكي والحيوية المتوثّبة في صورة أفعال وأعمال.

كما أنه لا يقف في تناوله للجانب السلبي عند نقطة التنبيه، بل يذهب إلى التعمّق والخوض في تفاصيل العقوبة وتنوع أساليبها؛ ليكون وقعها على النفس أشدّ، ولا سيما عندما يبرز الثواب المقابل بتفاصيله وجزئياته؛ لتتم العملية التعليمية عن طريق تداعي الأفكار. وهذه النظرية قد عُرفت عند علماء التربية «بأنها الأفكار التي بينها تقارب أو تتابع أو تماثل أو تخالف. وحين يذكر أحد الشيئين - حتماً - يتبادر إلى الذهن الشيء الآخر.

ولتوضيح ذلك، نكتفي بذكر قصة صاحب الجنتين الذي افتخر وتباهى مفتوناً بكثرة ماله وولده، ولم يلتفت إلى ما قدم إليه من إرشاد ونصح والحجة المدعومة بالدليل الواضح وضوحاً يغوص في أعماق النفس؛ لتقف فتمعن النظر:

﴿ قَالَ لَهُۥ صَاحِبُهُۥ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَكَفَرْتَ بِٱلَّذِى خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّىٰكَ رَجُلًا ۝ لَّٰكِنَّا۠ هُوَ ٱللَّهُ رَبِّى وَلَآ أُشْرِكُ بِرَبِّىٓ أَحَدًا ﴾[1]. ثم يمضي في تذكيره وتبصيره بأن العاقبة للمتقين الأبرار، وأن ما عند الله خير وأبقى، وأنه القادر على أن يدمِّر ويزيل ويمحق. وينتهي الدرس مذكّراً بسوء العاقبة لمن كفر وعاند؛ فقد سجّل صورة المأساة في أروع لوحة ذات ألوان وظلال: يقف الذي يعتقد دوام الدنيا ونعيمها - وهو يقلّب كيفية حسرة وندامة، إذ يشاهد ثمار حديقته تحترق، ومياه آباره تغور، فهل يجدي الندم؟ ليس الآن ولا من معين ولا نصير، لقد فات الأوان، ومن هنا تطل خاتمة الدرس متوّجة بانتصار الحق الذي تتلّهف إليه النفس. تلك التي ما انفكت تتابع مقدماته خطوة خطوة حتى تبلغ نشوة نتائجه؛ لتبقى بعد ذلك في تطلع وشوق إلى تلقّي الجديد من الدرس.

وعند عرض الأمثلة وسوقها يعمد المنهج القرآني إلى:

1 - إثارة الإعجاب؛ ليوقظ في النفس غريزة «حب الاستطلاع».

2 - جعل هذا الحب في إطار توجيهي، وذلك بتغذيته بمختلف الوسائل المُعينة على استكشاف الحقائق.

3 - إيضاح الأدلة والبراهين المتنوّعة التي تدفع النفس إلى التعلّق بمتابعة البحث دون الشعور بالملل أو السأم.

وهذه الركائز الثلاث هي التي ينبثق من إطارها التفكير العميق الخلاّق الذي يجعل النفس تقف في تناولها للمعضلات والمشكلات موقفاً يتجاوز دائرتها؛ لتنطلق حاملة بذور الإصلاح، حيث تجد البيئة التي تمتلك مقومات التجاوب والتفاعل الإيجابي الذي يمهد السبيل لموكب الخير والعدل وانتصار كلمة الحق. فإبراهيم عليه السلام، إذ التمس من ربّه أن يريه كيفية إحياء الموتى لم تُقدم إليه المعلومة في صورة قضية منطقية ذات مقدمة

---

(1) سورة الكهف، الآيتان: 36، 37.

ونتيجة، بل قدمت إليه مدعومة - بوسيلة إيضاح - ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ ۖ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن ۖ قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي ۖ قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ ٱلطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ ٱجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ٱدْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا ۚ وَٱعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾[1]

ما نراه؛ فإن الدرس قد بُدىء بالسؤال، ولأن المقام مقام تربية وتعليم أُوثرت لفظة «الرب» وحيث إن شرح الدرس يقتضي معرفة مدى استعداد السائل لتلقّي المعلومة؛ لأن القضية قضية إيمان، كان السؤال الثاني كمفتاح للولوج. في الوقت الذي برز فيه عنصر الاستجابة المطمئنة للبدء في عرض - وسيلة الإيضاح.

والسؤال الذي يرد هو: من يتولّى إعداد هذه الوسيلة وتصميمها؟

إنه المتعلّم نفسه؛ ليعمل بيديه: يضمّ ويفرّق وهو يرى بعينيه، ويقوم ويقعد ويمشي، ويقف. وعاء زمني استغرقته هذه العملية، وظرف مكاني أحاط بعناصر تلك الوسيلة - أربعة طيور وأربعة جبال ودعوة، ثم سعي ليتم الدرس، وقد استوعب المتعلّم تفاصيله ودقائقه، وعلم أن الله عزيز غالب على أمره حكيم فيما يفعل وفيما يذر.

تنوّع الوسيلة:

قد تُصبح في ذات المتعلّم وفيما يستخدمه من مركوب وفيما يتناوله من زاد.

﴿ أَوْ كَٱلَّذِي مَرَّ عَلَىٰ قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّىٰ يُحْيِۦ هَٰذِهِ ٱللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا ۖ فَأَمَاتَهُ ٱللَّهُ مِائَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ ۖ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ ۖ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ ۖ قَالَ بَل لَّبِثْتَ مِائَةَ عَامٍ فَٱنظُرْ إِلَىٰ طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ ۖ وَٱنظُرْ إِلَىٰ حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ ءَايَةً لِّلنَّاسِ ۖ وَٱنظُرْ إِلَى

(1) سورة البقرة، الآية: 259.

ٱلْعِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾[1].

يبدأ الدرس بإثارة الإعجاب؛ ليوقظ «حب الاستطلاع»، وعقب ذلك، يتم إعداد الوسيلة ليكون المتعلّم أحد عناصرها بعد أن مر بمرحلة السؤال التمهيدي والإجابة التي عدلت، فعرض العناصر: الطعام والشراب لم يتغير رغم طول المدة، ولكن الحمار قد تفسّخ جسده ولم يبق منه شيء سوى العظام المبعثرة، وها هي تلتئم وتكتسي باللحم علامة على قدرة الله لتُزيل الاستغراب وترسخ المعلومة في ذهن من يعي ويدرك.

وقد يُؤثر المنهج أن تكون الوسيلة خارجة عن محيط ذات المتعلّم لكي تترك له فرصة التمكّن من المشاهدة والإلمام بالكليات؛ ليتم إبراز المعلومة عن طريق الاستنتاج ثم مرحلة الممارسة العملية التطبيقية، كالتجربة المعملية.

فابن آدم - قابيل - حينما سولت له نفسه قتل أخيه - هابيل - وارتكب جريمة القتل هذه لم يفكر فيما يفعل بالجثة إلا بعد أن وجد نفسه في مأزق وحيرة، عندئذ يبدأ الدرس بالوسيلة التعليمية: يأتي الغراب - ليكون المعلم الأول - يبحث في الأرض ليريه كيف يواري سوءة أخيه؟

ويستوعب التلميذ الأول التجربة بكل ما تحويه من مرارة وقسوة، لتبقى من بعده سُنّة متبعة في بني آدم حتى يرث الله الأرض ومن عليها.

﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱبْنَيْ ءَادَمَ بِٱلْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ ٱلْءَاخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٢٧﴾ لَئِنۢ بَسَطتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَآ أَنَا۠ بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٨﴾ إِنِّيٓ أُرِيدُ أَن تَبُوٓأَ بِإِثْمِي وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلنَّارِ وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُا۟

(1) سورة البقرة، الآية: 258.

﴿الظَّالِمِينَ ۝ فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ فَأَصْبَحَ مِنَ الْخَاسِرِينَ ۝ فَبَعَثَ اللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِي الْأَرْضِ لِيُرِيَهُ كَيْفَ يُوَارِي سَوْءَةَ أَخِيهِ قَالَ يَا وَيْلَتَا أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَذَا الْغُرَابِ فَأُوَارِيَ سَوْءَةَ أَخِي فَأَصْبَحَ مِنَ النَّادِمِينَ ۝ * مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ كَتَبْنَا عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنَّهُ مَنْ قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُنَا بِالْبَيِّنَاتِ ثُمَّ إِنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ بَعْدَ ذَلِكَ فِي الْأَرْضِ لَمُسْرِفُونَ﴾(1).

تناول الدرس عرض توضيح الدافع النفسي الذي دفع «قابيل» حسداً من عند نفسه إلى ارتكاب أشنع جريمة عندما أحس بالإحباط الذي استولى على نفسه عقب رفض قبول قربانه، فتحول رد فعل هذا الحرمان إلى حقد مدمّر انصبت شحنته على أخيه الذي رآه يظفر بكل ما حرم منه. ومما زاده غيظاً أن أخاه لم يقف منه موقف المتحدّي المدافع عن نفسه، فقد مضى يذكّره ويوضح له مسوغات الإعراض عن مجاراته في تهديده بغية أن تتولّد عن هذه المسوغات الاستجابة في نفسه لتحدث عملية التعلّم؛ إذ الاستجابة شرط أساسي يتوقف عليها تقبل المعلومة.

فذكّره:

1 - بالتقوى. 2 - بالخوف من رب العالمين.

3 - بالإثم المتضاعف. 4 - بأصحاب النار. 5 - بجزاء الظالمين.

ولكن «قابيل» لم يعِ الدرس ولم يستوعب المعلومة، بل اندفع متمادياً في غيه، وباندفاعه طوعت له نفسه قتل أخيه. ويستمر الدرس بعد ذلك في عرض الوسيلة التوضيحية والتقويم الختامي الذي سجّل قيمة حياة الإنسان في حالة سموها.

(1) سورة المائدة، الآيات: 29-34.

ومن هنا يتبين أن الوسيلة التوضيحية التي يستخدمها المنهج القرآني، أياً كان نوعها ومصدرها، قد تكون ذات مضمون يحمل ألواناً مختلفة من الأدلة الواضحة على إثبات العديد من القضايا والأحكام، كما رأينا فيما تقدم.

وكما يبدو جليًّا في بقرة بني إسرائيل التي استخدمت كوسيلة ذات محتوى يشتمل على العناصر الأساسية لموضوع الدرس المتمثلة فيما يلي:

1 - الإلحاح في السؤال المتعلق بذات الوسيلة وهذا قد يؤثر تأثيراً بالغاً على الاستجابة في عملية التعلُّم، حيث يؤدّي إلى صرف المتعلّم عن صلب موضوع الدرس، ويضيّع كثيراً من الجهد والوقت. ثم يفضي بالسائل إلى متاهات الأجوبة التي تنتهي بدورها إلى تضييق الحكم وقوته.

2 - اكتشاف مرتكب جريمة القتل التي تمت في سرّيّة يتعذر معها إيجاد الأدلّة، بل يستحيل. ولولا ذلك لحفظت القضية وقيدت ضد مجهول؛ لعدم كفايتها.

3 - إثبات قضية البعث. حيث تمّت عملية الضرب والإحياء ثم الإخبار الذي يُغني عن كل شاهد ولا يدع مجالاً لمنكر، ولكنه يُفسح المجال لمشاهدة العلامات الدالّة على قدرة الله؛ لتستيقظ العقول فتدرك الحقائق الواضحة والبراهين الساطعة.

﴿فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا كَذَٰلِكَ يُحْيِي اللَّهُ الْمَوْتَىٰ وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾[1].

ومن خلال هذا الدرس، يتضح لنا أن المعلومة المعرفية المتعلّقة بإحداث تغيير في نفس المتعلّم قد تم تحصيلها عن طريق العلم نتيجة الإدراكين: الحسّي، والمعنوي.

المنهج القرآني والبيئة:

الذي يبدو واضحاً أن المنهج القرآني قد استخدم في إبراز المعاني

(1) سورة البقرة، الآية: 72.

وتشخيصها عناصر البيئة المُحسّة؛ لينبّه العقل البشري إلى منافذه الكاشفة لتلك الحقائق، إنما هي الحواس كما وجهه في الوقت نفسه إلى أن مصدر المعرفة هو ما يحويه هذا الكون من علامات دالّة على قدرة الله.

ويأتي «علم التربية» فيُسمّي الكون بالبيئة الطبيعية والبيئة الاجتماعية، ثم يقرر بأن التربية إنما هي عملية تكيّف بين المتعلّم والبيئة.

والتكيّف إنما يُقصد منه تغيير ما في نفس المتعلّم، وذلك بتنمية مواهبه وتعديل ميوله وإصلاح سلوكه بوجه عام حتى يتلاءم مع بيئته، وتغيير ما في البيئة ليتلاءم مع حاجاته.. وعوامل هذا التغيير تتمثل في ثلاثة جوانب:

1 - الجانب التحصيلي، وهو الإلمام بقدرٍ كافٍ من العلوم بنوعيها: الطبيعي والاجتماعي؛ ليتمكّن المتعلّم من الإحاطة ببعض جوانب نفسه؛ لأن ذلك يسهّل له مهمة تكييفها بمقتضى البيئة.

2 - الجانب التطبيقي، وهو ما يُعرف بتكوين العادات والمهارات ليكتسب المتعلّم عن طريق ذلك، القدرة على مواجهة مشكلات الحياة والتغلّب عليها بأسلوب يكفل له النجاح في مسيرته.

3 - الجانب الخلقي، وهو ما يتعلّق بتقويم الأخلاق، والتحلّي بالحميد من الخصال الحسنة والصفات الكريمة؛ لأنها تحفز المتصف بها إلى جليل الأعمال وطيب المعاملة، كما تربّي فيه الذوق الرفيع وتصقل حسه، وترهف شعوره.

أما ما يتعلق بتغيير البيئة، طبيعية كانت أم اجتماعية، فإنه يعني تسخير ما تشتمل عليه من مواد تستخدم لنفع الإنسان وخير البشرية وتقدمها.

والمنهج القرآني يدعو بإلحاح إلى النظر:

﴿قُلِ انظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا تُغْنِي الْآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ﴾[1].

---

(1) سورة يونس، الآية: 101.

والنظر يعني: التأمّل، والتأمل هو السبيل المؤدّي إلى العلم بما تحويه الأرض، وهي بيئة الإنسان. ولم يقف المنهج عندها بل نراه يتجاوزها، فيوجّه الأنظار إلى ما تشتمل عليه السموات، كذلك من مصادر تزخر بألوان من المعارف مختلفة؛ فهي قد سخّرت وطوّعت ولكن لمن؟ لذوي العقول التي استخدمت وفق الأسس التربوية التي رسمها القرآن، حيث بسط أمامها مختلف الإمكانات التي تكشف لها جملة من الحقائق الواضحة في شمولها وعمقها بغير تحديد زمني أو حصر مكاني؛ فهو لا يتقيّد بعصر معين: يضرب الأمثلة بالنماذج البشرية الخيرة؛ ليستفيد منها عبر العصور الممتدة.

وكذلك النماذج السيئة: لتكون عبرة وعِظَةً يلتمسها المتعلّم من خلال الأجيال المتعاقبة التي كرّست حياتها من أجل نصرة الحق والكفاح المستمر ضد الظلم والطغيان. أما من حيث المكان، فإن المنهج القرآني يُؤْثر أن يتخذ منه نقطة لانطلاقه، ولكنه لا يقف عند حدٍّ معيّن، كالتحديد الجغرافي المعروف عندنا الآن، بل يمتد في اتساعه حتى يشمل الأرض كلها.

نجد ذلك بوضوح تام عندما اختار «مكة» محوراً فخاطب قريشاً لافتاً انتباههم إلى بعض مشكلاتهم اللصيقة بهم محليًا.

﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ ۝ أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ ۝ وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ ۝ تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ ۝ فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ ﴾(1).

فقصة أصحاب الفيل قصة لم تكن بعيدة عن أذهانهم؛ فهي تعيش معهم وبينهم، تتناقلها ألسنتهم في مجالسهم إذ لم يمضِ من الزمن ما يجعلها في طي النسيان؛ فقد سِيقت لتذكرهم بأهمية المكان ورفعة منزلته؛ لذا استحق العناية الإلهية كما استحق أن يكون نقطة الانطلاق وقبلة تتجه إليه الأنظار، وتهواه الأفئدة. ويمضي الدرس في تذكيرهم بمواردهم الاقتصادية وعلاقاتهم

(1) سورة الفيل، الآيات: 1-5.

بمن حولهم من المجتمعات المجاورة، ثم يوضح لهم أن الاستقرار الداخلي إنما يعتمد على دعامتين أساسيتين هما: 1 - الأمن. 2 - والرخاء الاقتصادي. ﴿لِإِيلَٰفِ قُرَيۡشٍ ۝١ إِۦلَٰفِهِمۡ رِحۡلَةَ ٱلشِّتَآءِ وَٱلصَّيۡفِ ۝٢ فَلۡيَعۡبُدُواْ رَبَّ هَٰذَا ٱلۡبَيۡتِ ۝٣ ٱلَّذِيٓ أَطۡعَمَهُم مِّن جُوعٖ ۝٤ وَءَامَنَهُم مِّنۡ خَوۡفِۭ﴾(1) حيث يبدأ المنهج بعد ذلك في توسيع دائرته منتقلاً إلى البيئة الاجتماعية التي تعني العلاقات القائمة بين الأفراد على اختلاف أنواعها، اقتصادية كانت أم سياسية؟ مهنية أم ثقافية؟ فيذكر قضية الصراع القائم بين الدولتين العظميين في ذلك العصر: الفرس والروم. مبيناً أن النصر سيكون في النهاية لمن يود المؤمنون نصرهم، ولكن قريشاً المشركة لا تسرها هزيمة الفرس، بل تكره أن ترى ممن يلتقي معها في دائرة العقيدة الفاسدة قد أصابه الأذى.

والدرس يهدف إلى:

1 - توضيح العبرة المستنتجة من خلال الصراع في سبيل نصرة العدل والحق.

2 - إن النصر لا يحرز بيسر وسهولة، بل يحتاج إلى الكفاح المستمر والصبر الإيجابي.

3 - الإيمان بأن الغالب قد يُغلب، وأن المغلوب قد يكون يوماً غالباً، وهذه حقيقة لا مراء فيها ولا ريب. وإن علم التربية يقرر بأن معرفة مثل هذه المعلومات وتقبُّلها تقود المتعلم إلى معرفة نفسه؛ ليتخلّص بالتالي من العقد النفسية التي تحول بينه وبين التلاؤم مع بيئته الاجتماعية.

﴿الٓمٓ ۝١ غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ۝٢ فِيٓ أَدۡنَى ٱلۡأَرۡضِ وَهُم مِّنۢ بَعۡدِ غَلَبِهِمۡ سَيَغۡلِبُونَ ۝٣ فِي بِضۡعِ سِنِينَۗ لِلَّهِ ٱلۡأَمۡرُ مِن قَبۡلُ وَمِنۢ بَعۡدُۚ وَيَوۡمَئِذٖ يَفۡرَحُ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ۝٤ بِنَصۡرِ ٱللَّهِۚ يَنصُرُ مَن يَشَآءُۖ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ﴾(2).

---

(1) سورة قريش، الآيات: 1-5.

(2) سورة الروم، الآيات: 1-4.

المنهج القرآني والنماذج الإنسانية:

إنه حين ينتقيها إنما ينتقي ذات التجربة المفعمة بألوان الكفاح لتثبيت دعائم الخير والعدل، ثم يُركِّز على عنصر التوجيه الهادف والعظة المؤثرة دون أن يخوض في التفاصيل الأخرى التي تتعلّق مثلاً بتحديد المكان والوقت والاسم؛ لأن الخوض في مثل هذه الأمور قد يبعد المتعلّم عن الهدف الأساسي من الدرس، حيث يلقي به في بحر من المَلَلِ والسأم ويفقده القدرة على التركيز الذهني. ففي قصة ذي القرنين مثلٌ واضح جلي، إذ يُستهَل بالسؤال: ـ ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَن ذِى ٱلْقَرْنَيْنِ ۖ قُلْ سَأَتْلُوا۟ عَلَيْكُم مِّنْهُ ذِكْرًا﴾[1].

ثم يمضي في إبراز المعلومة بعد الإحاطة بذكر صفات الشخصية التي اتخذت كنموذج. يلتقط العبرة مدعومة بالمقدّمة التي تفيد التمكّن وإمداد ذي القرنين بأسباب القوة والمنعة، وما ذلك إلا تمهيد يستثير اهتمام المتلقي ويستوقفه ليطل على عمق الحقيقة لتطالعه تفاصيلها متهيئاً مصغياً حيث يلتمس من رأي انتشار الفساد ـ من ذي القرنين ـ أن يعينهم على اقتلاعه. وإن هو فعل فهم مستعدون لدفع المقابل. ولكنه لفت انتباههم لفتة المعلّم الحريص إلى أن الأمر يحتاج إلى القيام بعمل جماعي تظهر فيه الإرادة الشعبية في أجلى مظاهرها وأوضح معانيها:

﴿فَأَعِينُونِى بِقُوَّةٍ﴾[2] ﴿ءَاتُونِى زُبَرَ ٱلْحَدِيدِ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا سَاوَىٰ بَيْنَ ٱلصَّدَفَيْنِ قَالَ ٱنفُخُوا۟ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَعَلَهُۥ نَارًا قَالَ ءَاتُونِىٓ أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا﴾[3].

وقد تم الدرس بإرادة جماعية تحقق فيها مبدأ التعاون المبني على الإيثار النفسي. والاستجابة الواعية من قبل الأفراد الواثقين بحكمة القيادة التي وجهتهم إلى أن نجاح العمل إنما يتحقّق بتوافر الأسس التالية:

---

(1) سورة الكهف، الآية: 82.

(2) سورة الكهف، الآية: 91.

(3) سورة الكهف، الآية: 92.

1 - نبذ المقابل المادّي فيما يتعلّق بالأعمال التي يتوقّف إنجازها على التضحية الجماعية.

2 - تكاثف الجماعة وتوحيد قوتهم ووقوفهم صفًّا متماسكاً.

3 - التحام القاعدة الشعبية بالقيادة الرشيدة.

4 - التماس العون بمن يتوسم فيهم الأهلية للقيام بعمل يدرأ الخطر الذي يتهدّد كيان الأمة.

وهذا العمل التعاوني يسميه علم النفس الاجتماعي «سلوك المساعدة».

ومن ثم نرى أن الدافع هنا إنما هو دافع اجتماعي نتج عن شعور الجماعة بالخطر، في الوقت الذي لم تكن لديها القوة الكافية لصد هذا الخطر؛ لذا لجأت إلى من توسّمت فيه مقوّمات القوة فأيقنت أن إنقاذها سيكون - حتماً - على يديه وقد تحقَّق فعلاً ما اعتقدته؛ فخاضت التجربة وهي على وعي تام بما زخر به الدرس من فوائد جمة فتحت أمام الأفراد أبواب العمل النضالي في سبيل المحافظة على كيان الأمة، وحيل بينها وبين الخوف بسور من الأمن والأمان، وحصن حصين يكلأها من فساد «ياجوج وماجوج».

وما الخوف إلا المحرك الذي يحفز الفرد إلى البحث عن طريقة تحفظ له حياته آمنة مطمئنة.

فموسى عليه السلام حين ألقى عصاه الأليفة إليه ورآها تهتز كأنها جان تراجع هرباً وهو في موقع التجربة العملية، ولِمَ الخوف؟

فالدرس قد صممت وسيلته وحُضِّر من لدن رب العزة

﴿يَٰمُوسَىٰٓ أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْ إِنَّكَ مِنَ ٱلْءَامِنِينَ﴾[1].

فموسى إذن في المحك العملي. ومن كان كذلك فإن عليه أن يسعى إلى بلوغ الهدف لا أن يقف عند مقدمات الدرس وهو قد قبل التحدّي ووافق على

(1) سورة القصص، الآية: 31.

موعد اللقاء. وقد كان موعد اللقاء هذا ضحى يوم الزينة: حيث دُعي الجميع ولم تكن دعوة خاصة لحضور النتيجة التي ستتم متابعة فصولها فصلاً فصلاً، يرى الرائي بعينيه في وضح النهار حيث الشمس ساطعة والرؤية واضحة والحركة محددة.

وينتهي الدرس بفوز موسى الآمن مسجّلاً انتصار الحق واندحار الباطل وإيمان السحرة برب هارون وموسى.

وإبراهيم عليه السلام، يتوجس خيفة إذ يشرفه الوفد الملائكي حاملاً إليه البشرى بمولوده الذي طالما تحرّق شوقاً إلى رؤيته.

وتأتي مقدمة الدرس مشوّقة ممهّدة باستقبال الضيوف سلاماً وترحيباً، فقياماً بواجب الإكرام حيث يقدم العجل الحنيذ «المشوي» ويبقى الطعام لا تمتد إليه يد ويقف إبراهيم منزعجاً مضطرباً. لِمَ؟ وكيف؟ ويدرك ألاّ رغبة لهم في الأكل، وهو الذي يود ألا يقف مثل هذا الموقف من ضيوفه؛ فقد رحّب وهشّ وبشّ وأبدى من حسن الاستقبال وجميل العبارة ما جعلهم يبادرون إلى تهدئة روعه وإزالة ما علق بنفسه من خوف.

﴿قَالُوا۟ لَا تَخَفْ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمِ لُوطٍ ۝ وَٱمْرَأَتُهُۥ قَآئِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَٰهَا بِإِسْحَٰقَ وَمِن وَرَآءِ إِسْحَٰقَ يَعْقُوبَ﴾[1].

ولوط عليه السلام يضيق ذرعاً وتنقبض نفسه بمقدم الوفد ويحسّ بأصابع من الحزن تعصر قلبه؛ فلم تترك له فرصة التقبل الواعي لأحداث الدرس ولم يجد الانشراح النفسي الذي يُوقظ الاستجابة، ويثير الانتباه. ففي حالة الخوف ينتاب النفس البشرية شعور ممض بمراقبة البواعث والدوافع، فتقف مشدوهة عند نقطة الرجاء والأمل ترقب متلهفة بارقة النجاة، ولعل في ذلك تمهيداً للدخول في دائرة التشويق التي بعدها الانتقال إلى مرحلة العرض حيث الاطمئنان الذي يبعث على الإيمان بقوة الله القاهرة.

(1) سورة هود، الآيتان: 69، 70.

﴿ وَلَمَّا أَن جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالُوا لَا تَخَفْ وَلَا تَحْزَنْ إِنَّا مُنَجُّوكَ وَأَهْلَكَ إِلَّا امْرَأَتَكَ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ ﴾[1].

ثم تأتي ملاحق الدرس التي تحمل التعليمات الموجّهة المرشدة إلى معالم سبيل النجاة حيث تتم عملية الفرز، فيقدم إلى لوط عليه السلام الكشف بمن سيكونون معه في رحلة النجاة، على أن تنفّذ الخطة المرسومة تكتنفها السرية والحذر.

﴿ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ اللَّيْلِ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ إِلَّا امْرَأَتَكَ إِنَّهُ مُصِيبُهَا مَا أَصَابَهُمْ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ ﴾[2].

ولقد كانت تفاصيل موضوع الدرس بوسائله المعينة مثيرة للانتباه موقظة للضمائر الحية الواعية. فجوّه كان مشحوناً بالتوتّر والحرج والخوف.

فلوط عليه السلام يحاول الدفاع عن ضيوفه: يوجه قومه إلى ما هو أطهر وأنقى مستخدماً وسائل التأثير النفسي

﴿ يَا قَوْمِ هَؤُلَاءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ ﴾[3].

1 - نداء فيه من اللطف والرقة ما يلمس شغاف القلوب.

2 - إضافة تُوحي بالانتماء إلى الجماعة التي تشعرهم بالاعتزاز والفخر إن كانوا أهلاً لذلك.

3 - تنبيههم إلى موقع الخطأ في نفوسهم، ثم يطلب منهم العدول عن سوء ما يرتكبون من جرائم بشعة.

4 - ثم يتحول إلى مخاطبة العقل الراشد علّه يعثر عليه من بين المجموعة التي لا تفكر بعقلها الواعي وإنما بعقل جمعي يغيب عن وعيه في كثير من الأحيان سبيل الحق والصواب.

---

(1) سورة العنكبوت، الآية: 33.

(2) سورة هود، الآية: 80.

(3) سورة هود، الآية: 77.

ولكن لوطاً لم يظفر بشيء من ذلك: لاطف، فذكر، فبحث فتمنى، وماذا بعد؟

إنه لم يبق من الدرس سوى مرحلته الأخيرة، فهو قد وعى الخاتمة جيّداً، تلك التي حددت له وقائع المأساة مكاناً وزماناً، حيث ظلت المعلومة التي تحمل الأحداث التربوية ومضة تثير الانتباه الذي يجمع الفاعلية النفسية حول ظاهرة ما، عن طريق الحسّ أو التأمل وفق نوعية الظاهرة.

وداود عليه السلام يجد نفسه ذات يوم في إطار موقف تعليمي اختباري حين يقتحم عليه الخصمان خلوته فينتابه شعور بالفزع من خطر مَثُلَ بين يديه وأنى له أن يفعل شيئاً في موقف كهذا؟

«فعلم النفس» يقول في تحليل مثل هذا الموقف: «إن مجرد الأحساس بالخطر يحشد في المرء قوة غير عادية تفوق قوته في حالة الإطمئنان».

وإذا استولى الفزع على النفس اختفت الاستجابة وانعدمت الراحة.

لذا كانت مقدّمة الدرس لداود عليه السلام كمنبه للولوج في افتتاحية تقتلع من نفسه ما علق بها من أثر للفزع والاضطراب، وتنتشله من حالة الانقباض والضيق لتهيىء له جوًّا من الإحساس بالراحة والاطمئنان.

﴿قَالُواْ لَا تَخَفْ خَصْمَانِ بَغَىٰ بَعْضُنَا عَلَىٰ بَعْضٍ فَاحْكُم بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَلَا تُشْطِطْ وَاهْدِنَا إِلَىٰ سَوَاءِ الصِّرَاطِ﴾[1].

وتتلاحق حلقات الدرس تحمل في ثناياها ومضات زاخرة بملامح التشويق، ومنبهة إلى توخي الحرص الشديد على تتبّع مراحل التفكير المتأني للوصول إلى اصدار الحكم السليم المستند إلى الحيثيات الخالية من التسرّع والشطط، حتى يكون للدرس في تقويمه النهائي نتيجة غنية عن التعديل، غير أن من أهداف المنهج القرآني أن يضع المُرَبَّى في دائرة الاختبار العملي حيث يتضّح للنفس البشرية - إلى جانب ضعفها - جوانب السمو؛ لتسمو إلى أرقى المراتب، وتظفر في النهاية بما أُعدَّ لها من نجاح في الدنيا وفوز في الآخرة.

---

(1) سورة ص، الآية: 21.

ولقد خاض داود عليه السلام، هذه التجربة الحيّة، فتفاعل مع أحداثها ووقائعها بكل تفاصيلها، وتأثر بمواقفها الحركية ومشاهدها التي أبرزت قضية الإنسان مع أخيه الذي سمح لنفسه أن تسلك طريقة المغالبة والمحاجّة استناداً إلى سلطانه وسطوته مدفوعاً بنهمه الذي لا حدّ له.

ويقف داود عليه السلام، محلّلاً نفسية الخلطاء ولم يستثن منهم سوى القلة القليلة، مبيّناً أن الإيمان قد وقاها من عقدة حب الاستيلاء والسيطرة، لأن إيمانها لم يكن متقوقعاً سلبيًّا، ولكنه إيمان إيجابي قد تحول إلى اتجاهات وعادات صالحة وسلوكيات حميدة، وقدرات تفجّر طاقات الإنسان في مجال الخير والعدل والإبداع، وتفتح أمامه سبل النجاح التي تحفّزه إلى السير الحثيث لبلوغ أسمى الغايات.

ولقد أثبت «علم التربية» «أن الإنسان إنما يجدّ في عمله عندما يشعر بنجاحه فيه» ويمضي داود عليه السلام، في مراجعة أحداث الدرس بوعي عميق وإنابة خاشعة، حيث يحظى بالمنزلة الرفيعة التي تؤهّله لأن يكون خليفة في الأرض ينهض بعبء مسؤولية القيادة الرشيدة التي لا ترى الأمور إلا بميزان الحق والعدل، ولا تصدر الحكم إلا وهي تستشعر عظمة خالقها، ولا تسير إلا وفق التحذيرات التي وجهت؛ لترسّخ أسس المنهج الذي اختص بواقعيته، فهو لا يقدم مبادىء نظرية ولا توجيهات مجردة، ولكنه يطبّق ويمارس ويدرب ويتناول موضوع الدرس بالتحليل الدقيق العميق لكل الأسباب والنتائج، ثم ينتقل الى التعقيب؛ ليكشف الأثر النفسي حيث يعرضه في وضوح تام ليطمئن على أن الحقيقة قد تمكّنت من نفس المتعلّم واستقرت في جو من الرضا والقبول.

ويقف داود عليه السلام، مرة أخرى، فيجد نفسه أمام قضية لا تختلف في سماتها العامة عن القضية الأولى إلا في بعض ملامحها وظروفها من حيث العرض وتنوع الأسباب:

نعاج في الأولى... وغنم في الثانية.

﴿وَدَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِي الْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ الْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَاهِدِينَ ۝ فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ وَكُلًّا آتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُودَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَالطَّيْرَ وَكُنَّا فَاعِلِينَ ۝ وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَكُمْ لِتُحْصِنَكُمْ مِنْ بَأْسِكُمْ فَهَلْ أَنْتُمْ شَاكِرُونَ﴾(1).

ولم يؤكد التمهيد للدرس هذه المرة على الإثارة بالمفاجأة كالدرس السابق، ولكن الإثارة قد تعلّقت بذات إصدار الحكم في أثناء المداولة لحيثياته، حيث تولى الابن سليمان القيام بمهمة التعديل الذي لقي القبول من المتخاصمين والرضا من الأب داود عليه السلام.

إذن، فدراسة القضية قد تناولت أموراً جوهرية تتعلّق بروح الحكم من حيث التفاصيل الدقيقة التي أُلهمها سليمان فبادر إلى التوجيه والتعديل؛ لتكتمل معالم الدرس بجوانبها المتماسكة ولَبِناتها المترابطة، لينتقل الدرس بعدئذ إلى نوع آخر من التعليم.

صنعة تُنتقى ليتعلمها داود عليه السلام؛ إنها تتلاءم مع حاجة المجتمع الدفاعية التي يقف بها سدًّا منيعاً ضد أي اعتداء خارجي.

فالحديد قد لين وطوع، وهذا يحفزه إلى مضاعفة الجهد والمزيد من الدقّة لتكون الصنعة محكمة متقنة، وتكون خاتمة الدرس باعثة على الشكر والطاعة لتتحد القوتان: المادية والمعنوية معاً.

﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُودَ مِنَّا فَضْلًا يَا جِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُ وَالطَّيْرَ وَأَلَنَّا لَهُ الْحَدِيدَ ۝ أَنِ اعْمَلْ سَابِغَاتٍ وَقَدِّرْ فِي السَّرْدِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾(2).

ونوح عليه السلام، يبذل قصارى جهده في صنع سفينته لتخرج في أروع صورة من الجودة والاتقان بالرغم من سخرية قومه؛ فلم تزده إلا إصراراً وقوة.

---

(1) سورة الأنبياء، الآيات: 77-79.

(2) سورة سبأ، الآيتان: 10، 11.

فقد ظل يعالـج أخشابه ودسره ويدفع عن نفسه السأم والـملل لأنه يدرك أن الهدف واضح، وأن عين الله ترعاه، وأن الذي يبدأ الـخطوة الأولـى ويعي مقدمة الدرس فلا ينبغي له أن يقـف قبل الظفر بـالنتـيجة ويعلـم علـم الـيقـين أن الله قادر علـى أن يرسل إلـيه السفـينة مهيأة متقنة الصنع جيدة الألواح والدسر تستقبل ركابها لتـمخر بهم عبـاب البحر يحدوهم الأمن وتكلأُهم عناية الله، ولكن حكـمته اقتضت أن يكون نوح علـيه السلام، القدوة العملـية التـي تقتديها الأجيال المتعاقبة عملاً وكفاحاً ونضالاً وصبراً وعزيمة صادقة وإرادة ماضية لا تلـين ولا تهن.

فـالإرادة كما يقرر علـم النفس تـمر بأربع خطوات:

1 - الشعور بـالغرض بـمعنى أن الغرض من العمل يكون حاضراً أمام الذهن الـمريد.

2 - الروية، والروية تعنـي: التأنـي، وتـمـحيص الأراء الـمختلفة والبحث عن البواعث التـي تتـجاذب صاحبها، كالـميول والرغبـات والعواطف التـي تـمتزج بـالشخص وتـجتذبه إلـى القـيام بعمل معيّن.

3 - العزم، وهو الاستقرار عند رأي من الآراء التـي تـحتوي الغرض الـمراد.

4 - ثم تأتـي الـخطوة الأخيرة، وهي مرحلة البدء فـي تنفـيذ العمل، وقد تعترض عملـية التنفـيذ عقبـات تقـف فـي سبيـل إتـمام الـمرحلة النهائية للعمل. غير أن صدق الإرادة كفـيـل بـالتغلّب علـى كل مثبط ومشوّش ومخذل.

﴿وَاصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا وَلَا تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ ﴿٣٧﴾ وَيَصْنَعُ الْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِّن قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ قَالَ إِن تَسْخَرُوا مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ ﴿٣٨﴾ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ﴾[1].

ما احتوته الآيات الكريـمة يـمكن إبرازه فـيـما يلـي:

---

(1) سورة هود، الآيات 37-39.

1 - إن نوحاً عليه السلام، قد مرّ بمراحل الدرس مروراً عمليًّا متأنيًّا مكّنه من استيعاب تفاصيله مترابطة مرتبة.

2 - التهيئة للدرس كانت توجيهاً مباشراً إلى ما يقتضي سرعة التنفيذ الحركي بما يشتمل عليه من استعداد وفق الإمكانات البيئية المتاحة.

3 - التعبير بكلمة «اصنع» تشير إشارة واضحة إلى تحرّي الدقّة المتناهية فيما يعالجه الصانع وهو يتعامل مع الأدوات من حيث الضبط والانتقاء والاستيعاب.

4 - توجيه نوح عليه السلام، إلى تركيز ذهنه فيما طلب منه القيام بتنفيذه؛ لصرفه عن قضية أصبح التفكير فيها أمراً مفروغاً منه؛ لأن نهاية الظالمين ظلت وشيكة الوقوع.

إذن، فلا ينبغي لنوح إلا أن يجدّ ويكدح؛ لتحمل الجارية حصيلة دعوته - في ألف سنة إلا خمسين عاماً - وهي تجري بالقلة المؤمنة في موج كالجبال في رحلة النجاة تلك.

الرحلة العلمية:

ويصطحب موسى عليه السلام، فتاه قاصدين مجمع البحرين حتى إذا بلغا الصخرة توقّفا عن السير يلتمسان الراحة، ثم يستأنفان الرحلة الشّاقّة المضنية. ويطلب موسى من فتاه أن يناوله شيئاً من الطعام، ولكن الفتى يُفاجأ بأنه قد نسي الزاد إلى جانب الصخرة تلك. والزاد كان حوتاً، والحوت قد دبّت فيه الحياة حيث بقي فاتّخذ سبيله في البحر سرباً.

ويرتد موسى وفتاه. وفي طريق العودة يجدان العبد الصالح. ويعرض موسى عليه أن يقبل رفقته في رحلة العلم. وينبهه المعلم إلى أن الدرس صعب، وأن استيعابه ليحتاج إلى الصبر والطاعة والمعاناة.

ورغم ذلك، فإن موسى يقبل مدفوعاً بدافع الرغبة الملحّة في طلب العلم.

ثم تبدأ نقطة الانطلاق، ركوب السفينة حيث يتم خرقها من قبل المعلم، ويسأل موسى متعجباً مستغرباً. ﴿قَالَ أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا إِمْرًا﴾[1] تنبيه، فاعتذار، فقبول. وتستمر الرحلة ويتم خلالها قتل غلام لم يقترف ذنباً: وينفد صبر موسى فيعود إلى السؤال:

﴿قَالَ أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةً بِغَيْرِ نَفْسٍ لَّقَدْ جِئْتَ شَيْئًا نُّكْرًا﴾[2]

ثم يتكرّر لفت النظر. ويقطع موسى على نفسه وعداً، إن هو عاد، فلا حق له في المصاحبة.

وتُستأنف الرحلة: «3» ويدخلان إحدى القرى والرحلة شاقّة ولا زاد. فيلتمسان من أهلها طعاماً، ولكن الأهل يرفضون، وهنا يبرز دور المعلم فيقابل هذا الرفض بإقامة الجدار الذي يريد أن ينقض.

ويعود موسى وصبره نافد: ﴿قَالَ لَوْ شِئْتَ لَتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا﴾[3].

ويقف المعلم معلناً نهاية الصحبة، ولكنه لم يأذن للمتعلّم أن ينصرف قبل أن يفقه المعلومة التي كان يود بحرقة استعجال فهمها واستكشاف حقيقتها:

﴿أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَاكِينَ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَاءَهُم مَّلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا ﴿٧٩﴾ وَأَمَّا الْغُلَامُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَا أَن يُرْهِقَهُمَا طُغْيَانًا وَكُفْرًا ﴿٨٠﴾ فَأَرَدْنَا أَن يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِّنْهُ زَكَاةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا ﴿٨١﴾ وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُ كَنزٌ لَّهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي ذَٰلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا﴾[4].

---

(1) سورة الكهف، الآية: 70.
(2) سورة الكهف، الآية: 73.
(3) سورة الكهف، الآية: 76.
(4) سورة الكهف، الآيات: 78-81.

والدرس هنا تضمّن:

1 - كشفاً عن حقائق لم يكن موسى عليه السلام يدرك لها سرًّا.

2 - لقد تمّ كشفها عن طريق الوسيلة المعينة التي اتصلت حلقاتها بصورة عملية.

3 - إن الأحداث لم تُسرد سرداً تاريخيًّا، بل عرضت في قالب محدد للمعاني والدلائل؛ ليلتقط المتعلّم من تفاصيلها القيم الكامنة وراء الحوادث التي ترسم سمات النفوس وخلجات القلوب، وتصوّر الجو الذي يصاحبها.

4 - إن الأحداث تزخر بالحركة الحيّة المشوّقة الرامية إلى إبراز الأسس التي تقام عليها بنية النظام التربوي من حيث تحديد الإطار العام الذي يضع ملامح الصفات الواجب توافرها فيمن يلتمس العلم: كالطاعة التي تعتبر من أهم الفضائل الأساسية لإعداده إعداداً يمكّنه من أن يكون واثقاً بنفسه، واعياً منسجماً مع من يتولى توجيهه الوجهة السليمة الراشدة.

5 - الصبر، وهو الصفة الضرورية التي يجب أن يتحلّى بها من يريد أن يسلك طريق العلم والمعرفة، لذلك كان أول شرط اشترطه العبد الصالح حينما التمس منه موسى عليه السلام أن يأذن له في صحبته ليتعلم منه.

6 - طريق العلم طريق شاق عسير؛ فلا يناله إلا من كان ذا إرادة قوية وعزيمة صادقة.

فموسى عليه السلام، مضى مصمماً رغم ما لقيه من مشقة وعنت حتى حقّق هدفه وبلغ غايته.

﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِفَتَىٰهُ لَآ أَبْرَحُ حَتَّىٰٓ أَبْلُغَ مَجْمَعَ ٱلْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِىَ حُقُبًا﴾(1).

---

(1) سورة الكهف، الآية: 59.

7 - وفـي أثناء الدرس نـجد الـمعلـم يكثر من تنبـيه الـمتعلـم ألاّ يقاطعه بـالسؤال قبل استـيفـاء الـمعلومة.

﴿قَالَ فَإِنِ اتَّبَعْتَنِي فَلَا تَسْأَلْنِي عَن شَيْءٍ حَتَّىٰ أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا﴾[1].

8 - إن للصحبة أثراً عميقاً فـي نفس الـمتعلـم من حيث تأثرها بـالـجوانب العملـية التـي تتشرّبها عن طريق القدوة الصالـحة سلوكاً حسناً، وتوجيهاً راشداً، وكذلك العكس قد يحدث. والـمنهج القرآنـي يوضح هذه الـحقـيقة إذ يوبّخ الـمؤمنـين ويقرعهم وينكر علـيهم عدم مطابقة الفعل للقول لـيبـين لهم أن الـجانب النظري لا ثمرة له إلا إذا دعمه العمل حيث تتـم مرحلة التطبـيق:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ ۝ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ اللَّهِ أَن تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ ۝ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنْيَانٌ مَّرْصُوصٌ﴾[2].

وإذا كانت هذه الآية الكريـمة قد وردت فـي معرض الـحديث عن فريضة الـجهاد؛ فإنها بـالضرورة تهدف إلـى:

1 - نبذ هذه الصفة السلبـية فـي شتـى مـجالات الـحياة، وبخاصة فـي ميدان التعليـم والتربـية.

2 - إقتلاعها من نفوس الـمؤمنـين؛ فهي لا تلتقـي مع حقـيقة الـمؤمن الكامل؛ لذا عرضت فـي قالب منفر وصُوِّرت بصورة بشعة ﴿كَبُرَ مَقْتًا﴾[3] وعند من؟ «عند الله».

3 - ولأن الدرس درس جهاد؛ فإنه جدير بأن يكون منطلقاً تتفرّع من قاعدته الأسس التـي تنهض ببنية التعليـم؛ لتثمر معرفة واعية وعملاً صالـحاً.

---

(1) سورة الكهف، الآية: 69.
(2) سورة الصف، الآيات: 2-4.
(3) سورة غافر، الآية: 35.

4 ـ إن خاتمة الدرس برزت في صورة حية تجسّدت فيها الحركة العملية بكل عناصرها: محبة الله. لمن؟

للذين يقاتلون في سبيل من؟ في سبيل الله. وقد حددت كيفية القتال في ميدانها مضبوطة بقانونها الحركي الذي لا ثغرة فيه ولا وهن؛ لأن من أجل إعلاء كلمة الله وترسيخ عقيدة التوحيد ونصرة الحق.

وَلْيَلْفِتْ انتباهنا التعبير بالفعل «يقاتلون» إنه لذو دلالة دقيقة عميقة على إحياء الموقف قتال، واستحضار صورته في الذهن وتكرّره عبر الزمان والمكان.

5 ـ لقد احتوت الخاتمة أيضاً إشارات ذات وميض يكشف عن مختلف التوجيهات في مجال العلوم العسكرية من حيث الاستعداد والترتيب والتنسيق والتماسك التي تتولّد عنه القوة الصامدة الكاسحة، والتزام الصدق في التخطيط والتنفيذ: قل فاعمل، أو اعمل ودع ليتحدث العمل.

﴿وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ﴾ (1)

فالعمل يشاهده الكثيرون؛ لأنه ملموس محسّ يجذب أوّلي الأبصار كما قال الإمام الغزالي في شأن وظيفة المعلم: ـ «أن يكون المعلم عاملاً بعلمه فلا يكذب قوله فعله؛ لأن العلم يدرك بالبصائر والعمل يدرك بالأبصار وأرباب الأبصار أكثر، فإذا خالف العمل العلم منع الرشد»(2).

التربية بالقدوة:

إن مجال التربية بالقدوة مجال واسع؛ فقد أشبعه علماء التربية بحثاً على الصعيد النظري، كما دلت التجارب الحية على أن تهذيب السلوك بالأعمال خير سبيل لتحقيق الأهداف النبيلة؛ لأن النفس البشرية جبلت على حب التقليد.

---

(1) سورة التوبة، الآية: 106.

(2) إحياء علوم الدين، جـ 1، ص85.

ولقد ذهب علم النفس في تعليله لذلك إلى أن التقليد ينتج عن طبيعة الانقياد لمن يراه المقلّد أعظم منه شخصية في أي جانب من جوانب التفوق، أو ربما يرجع إلى قانون الاقتصاد في الجهد: بمعنى أن يصل الانسان إلى قناعة أن أحداً قد سبقه إلى التفكير في الرأي ليأخذ هو خلاصته.

غير أن دافع الانقياد قد يكون الحب، وقد يكون الخوف. وليست القدوة كذلك؛ فإن باعثها إنما هو الحب والاحترام فلم تكن العلاقة بين المقتدي والمقتدىٰ علاقة استعلاء وتسلّط وقهر فكري أو مادي، ولكنها اقتداء واقتفاء لخطوات راشدة وسيرة حميدة، واستقامة واعية.

ولقد أُمِر نبينا صلوات الله عليه بأن يقتدي بالأنبياء السابقين في أخلاقهم الحميدة، وشيمهم الرفيعة. يقتدي بهم في عاطر سيرتهم، وصبرهم على الأذى في سبيل نشر الدعوة؛ فكانت حصيلة الدرس الإلهي زاخرة بالمناقب والفضائل التي تحلّى بها رسولنا الكريم صلوات الله عليه، حيث جمع ما كان مجتمعاً فيهم من صفات الكمال وحميد الخصال فنال باستيعابه الدرس التطبيقي أعظم شهادة وأسمى جائزة، فلا جرم أن كان خاتم الأنبياء والمرسلين.

﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [1] ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ ۚ فَإِن يَكْفُرْ بِهَا هَٰٓؤُلَآءِ فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا لَّيْسُوا۟ بِهَا بِكَٰفِرِينَ ۞ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ ۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْ ۗ قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ۖ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْعَٰلَمِينَ﴾ [2].

فدعائم الدرس ثلاث: الكتاب، والحكم، والنبوءة. ورغم ما تشتمل عليه هذه الدعائم من وضوح؛ فقد قُوبلت بالجحود والنكران ممن لم يع الدرس.

---

(1) سورة القلم، الآية: 4.

(2) سورة الأنعام، الآيتان: 90، 91.

وفي المقابل، وُجد من شرح الله صدره للإيمان فاستجاب لدعوة الخير والحق وعمل ببرها وإحسانها.

فالقدوة إذن، كانت من أهم الركائز التربوية التي انتظمها المنهج القرآني منذ التمهيد الأول لبدء الدعوة؛ وإذا كان رسولنا عليه السلام، قد أمر بالاقتداء من قبل من اختاره واصطفاه؛ فإن أتباعه كذلك دعوا إلى اتخاذه أسوة يتأسّون بها في كل شؤون حياتهم الخاصة والعامة في تكامل لا يقبل التجزئة:

﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ إِسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا﴾(1).

وإنه ليبدو من خلال الدرس أن الأسوة قد وصفت بأنها حسنة، كما أنها وردت بصيغة النكرة.

فالتنكير يمنحها سعة وشمولية مطلقة حيث ينفسح مجال التأسّي للذين يضعون نصب أعينهم جزاء الله ولا ينقطعون عن ذكره.

أما الأحسنية فإنه من ثم يتضح أن الأسوة التربوية إنما تثمر في ميدانها بشرطين:

1 - التكامل الموضوعي.

2 - والادراك الواعي الذي يرشد إلى التمييز الصادر عن قناعة مختارة.

وإذا فقد شرط؛ فإن الاتزان ينعدم حيث ينساق المُتَأسِّي بهواه إلى أخذ ما يروق وترك ما لا يقع في دائرة مزاجه، عندئذ يجد نفسه، إما أن ينفر من المتأسَّى نهائيًا وإما أن يبقى منجذباً نافراً معاً. وفي هذه الحالة يتولّد صراع نفسي طاغ يذيب اتزان الشخصية فتحيا مسلوبة الوعي عديمة القدرة على رؤية الأشياء على حقيقتها، وبذلك تدخل في مرحلة الوهم الخادع، ويقف استخدام العقل حيث يبرز اختيار القدوة السيئة عن عمىً وضلال.

(1) سورة الأحزاب، الآية: 21.

والقرآن الكريم يلفتنا إلى حقيقة أولئك الذين اقتفوا نهج آبائهم الضال المنحرف:

﴿وَكَذَٰلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِم مُّقْتَدُونَ﴾(1).

محتوى الدرس: قرية، نذير مترفون، آباء، قدوة سيئة، فالقرية آهلة بالسكان، منهم المترف ومنهم غير ذلك. والمترف: المنعم الذي يدفعه ترفه إلى البغي والطغيان.

ثم يرسل النذير ليتولّىٰ القيام بمهمة الدعوة إلى التوحيد وطريق الحق وتقويم المعوج، وتصويب ما وقر في الأذهان من خطأ.

ويستجيب من تمسّ قلبه يد الهداية، ويبقى المترفون. أمّا هم فإنهم ـ في أغلب الأحيان ـ رافضون؛ لماذا؟ لأن الغِنىٰ قد أعماهم عن طريق الحق فأنساهم أن للكون إلهاً، واستلب من نفوسهم أداة التدبير والتمييز. لقد عميت أبصارهم وصمت آذانهم فلم يعودوا يشعرون بالقدوة الطيبة التي كانت تحيا بين صفوفهم، تذكّرهم وتنذرهم وتقدم لهم العبرة، وتضع بين أيديهم العظة الحيّة التي تخزّ ضمائرهم الميتة ولكنهم لا يحسّون؛ إنهم يلتفتون إلى الخلف، إلى الوراء، إلى الماضي المظلم يتلمّسون من بين حناياه المتداعية أسوأ قدوة، فيعز عليهم أن يتخلّصوا من ضلال آبائهم.

﴿إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِم مُّقْتَدُونَ﴾(2).

وابراهيم عليه السلام، يبدأ درسه ممهّداً لافتاً نظر أبيه وقومه إلى الخطأ الذي كان يمارس، ولكنه لم يقف ليبحث عن عنصر الإثارة والتشويق، وإنما يدخل مباشرة في عرض تفاصيل الدرس منكراً رافضاً أشد ما يكون الرفض

(1) سورة الزخرف، الآية: 22.
(2) سورة الزخرف، الآية: 22.

حيث يصب سؤاله دفعة واحدة؛ ليهزّ ضمائر القوم ويحرك عقولهم لتصحو من نومها العميق.

إنه يعمد إلى تحقير تماثيلهم؛ لينبّههم إلى أن عكوفهم عليها خطأ فادح، وخطر يجرّهم إلى الهاوية. فلمن إذن هم عاكفون؟

لصنع أيديهم: ثم تمتدّ تلك الأيدي الصانعة نفسها لتلتمس من المصنوع العون وتتوسّل خاضعة وتجثو عند أقدام ذلك التمثال الأبله ضارعة تمنحه القرابين؛ لأنه معبودها. ولأن الآباء كانوا عابدين:

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَآ إِبْرَٰهِيمَ رُشْدَهُۥ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِۦ عَٰلِمِينَ ۝ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَا هَٰذِهِ ٱلتَّمَاثِيلُ ٱلَّتِىٓ أَنتُمْ لَهَا عَٰكِفُونَ ۝ قَالُوا۟ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا لَهَا عَٰبِدِينَ ۝ قَالَ لَقَدْ كُنتُمْ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمْ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾[1].

تتكرر الاجابة التي تستند على اتخاذ الآباء قدوة سيئة للانحراف: الاقتداء، الاهتداء، العبادة.

وقد نتج عن التكرار تأصّل هذا الانحراف حتى ظل عادة. «وعلم النفس» يقول: إن التكرار هو العامل الأساسي في تكوين العادة، كما أن للإيحاء والمحاكاة أثراً بالغاً في توجيهها، وأن العمل الآلي يؤدّي ـ مع الديمومة ـ إلى الميل النفسي حيث تتحكم العادة بعنصريها وتسيطر، فتنطلق الدوافع في غفلة من الضوابط الإرادية، عندئذ يسهل الانقياد ويغيب الانتخاب العاقل لفرز الألوان والأشياء معاً.

وإبراهيم عليه السلام، يسوؤه أن يرى أباه يتّجه إلى صنم يعبده، ويأسف أشد الأسف فيخاطبه بعبارة تقطر عذوبة ورقة وتحمل توجيهاً راشداً ليّناً حيًّا لعلّه يصل بذلك إلى أعماق نفسه فتوقظ فيه عاطفة الأبوة الواعية.

(1) سورة الأنبياء، الآيات: 51-54.

﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنكَ شَيْئًا ۝ يَا أَبَتِ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا ۝ يَا أَبَتِ لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ عَصِيًّا ۝ يَا أَبَتِ إِنِّي أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ الرَّحْمَٰنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا﴾[1].

فالأب يصبح تلميذاً؛ لأنه لم يظفر بشيء من علم. أما الابن فقد مُنح علماً يؤهّله لأن يكون معلماً.

وكيف يكون الأب لابنه تابعاً!؟ فقد عزّ على الأب ذلك، فالتبعية بهذه الصورة لا يروقها عرف المجتمع. فلو صدر الأمر من الأب لابنه بالاتباع ـ كابن نوح عليه السلام ـ لكان ذلك مستساغاً لدى من يقيس الأمور بمقاييس البشر.

هناك ابن يعصي وهنا أب يكون من العصاة الضالين. ومن ثم آثر الأب موقف الرافضين المعاندين. فهدّد وتوعّد قائلاً: ﴿**يا إبراهيم...**﴾ ولم يقل يا بني. كما قال نوح يا بني إركب معنا.

﴿قَالَ أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ آلِهَتِي يَا إِبْرَاهِيمُ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ وَاهْجُرْنِي مَلِيًّا﴾[2].

وتنتهي الحلقة الأولى من الدرس في جزئه النظري. وقد كانت طريقة المقدّمة حوارية تميّزت بالملاطفة والملاينة. لقد سلك إبراهيم عليه السلام هذا المسلك؛ ليقيم الحجة الكاشفة لتفاصيل الحقيقة الهادية بكل رفق إلى طريق العدل والحق.

إنه اتخذ أباه نقطة الانطلاق بداية لخطوته الأولى في دعوته ليكون ذلك أدعى إلى استمالة الآخرين وأجدى لتوطيد أركان بناء الدعوة؛ ولما لم يحرز

---

(1) سورة مريم، الآيات: 41-44.

(2) سورة مريم، الآية: 45.

تقدماً ـ وهو ماضٍ ـ فقد رأى أن يتحوّل إلى الحلقة الثانية من الدرس العملي - مرحلة التنفيذ. والمواجهة التي تسقط من حسابها ملامح الرقة والملاطفة ولا تعترف بالملاينة كعنصر في تركيبة المنهج، وإنما تتّجه مباشرة إلى الصرامة والحزم مضيًّا نحو تحقيق الهدف بغير توقف ولا وهن. ولم يغب عن ذهن إبراهيم وهو مقدم على هذه المرحلة ما سيُواجَهُ به من ردود الفعل التي قد تكون أشد وأعنف مما يتصور، إنهم قوم نشأ بينهم فعرف مدى تمسّكهم بآلهتهم الباطلة. فعليه إذن أن يحدد وقت التنفيذ حذراً، فالحذر مطلوب في مثل هذه الظروف.

ويمضي فيختار لتنفيذ قراره يوم العيد، وكان يوماً يخرج القوم فيه إلى حيث الطبيعة الساحرة برقة نسيمها وطيب هوائها، ولم يبق إبراهيم عليه السلام، حيث التماثيل من البداية معتذراً، ولكنه خرج، وفي أثناء الطريق أبدى للقوم عذره:

﴿ فَنَظَرَ نَظْرَةً فِي ٱلنُّجُومِ ۝ فَقَالَ إِنِّي سَقِيمٌ ۝ فَتَوَلَّوْاْ عَنْهُ مُدْبِرِينَ ۝ فَرَاغَ إِلَىٰٓ ءَالِهَتِهِمْ فَقَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ ۝ مَا لَكُمْ لَا تَنطِقُونَ ۝ فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْبًۢا بِٱلْيَمِينِ ﴾[1].

ويتم تنفيذ العملية بكل إتقان ودقة: أصنام تتحطّم جذاذا، وتماثيل تهوي كما هوت بعد ذلك في ساحة «مكة» حينما ﴿ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَٰطِلُ إِنَّ ٱلْبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا ﴾[2].

وماذا بعد؟ أيقف القوم يشاهدون آلهتهم أشلاء ممزقة، بل قطعاً متناثرة، دون أن يحرّكوا ساكناً، أو يسكنوا متحرّكاً؟ أم أنهم يثورون لكرامة تلك الآلهة التي دِيست فينتقمون ممن فعل بهم سوءًا؟

---

(1) سورة الصافات، الآيات: 88-93.

(2) سورة الإسراء، الآية: 81.

وماذا توقع إبراهيم عليه السلام؟ وهل كان يملك شيئاً من وسائل الدفاع إن هو اتهم في هذه القضية؟ قضية الصراع بين الحق والباطل، قوم وقفوا يداً واحدة يناصرون الباطل ويتعاونون على الإثم والعدوان. وإبراهيم عليه السلام، يقف وحده صامداً، فيثبت في صلابة وقوة مهما عظمت التضحية وغلا الثمن.

المحاكمة

وتبقى آثار الدرس العملي قِطعاً من الحجارة متناثرة مبثوثة هنا وهناك تكسو أرض الآلهة حيث كانوا رابضين، يراها القوم إذ يرجعون من يوم زينتهم فيهولهم المنظر البشع: آلهة محطمة. كيف؟! ولماذا لا تدفع عن نفسها الأذى؟

ومن ذا الذي فعل بها ما يُرى؟

أسئلة حائرة تنطلق من أفواه القوم في جو مشحون بالحيرة والاضطراب، وفجأة يبرز من يدلّهم على أول خيط من خيوط القضية، فيخبر القوم الحيارى بأنه سمع فتى يذكرهم يقال له إبراهيم.

فالجاني إذن قد عرف في نظرهم. وبذلك تتحدّد عناصر القضية. فلتعقد المحكمة وليدع شهود الإثبات والقوم حضور.

﴿فَأْتُوا بِهِۦ عَلَىٰٓ أَعْيُنِ ٱلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ﴾[1].

ويمثل الذي حمل دعوة الحق أمام المحكمة «محكمة الزيف» لتوجه إليه الأسئلة ﴿ءَأَنتَ فَعَلْتَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَا يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ﴾؟[2].

ويلجأ إبراهيم إلى الإجابة الذكية البارعة، فيحيلهم على كبير آلهتهم ليسألوه، فما دام قد وُصف بالألوهية فإنهم حتماً - سيجدون عنده الخبر اليقين. غير أن الإجابة كانت كالضوء الأحمر أوقفت القوم فبعثت في نفوسهم بصيصاً من الحقيقة سرعان ما انطمس أمام جبروت الجحود والنكران. ولما

(1) سورة الأنبياء، الآيتان: 61.
(2) سورة الأنبياء، الآيتان: 62.

وجدوا أنفسهم في قبضة الحجة الدامغة التي يتعذّر الفكاك منها لجأوا الى العناد والمكابرة، فنكسوا على رؤوسهم. ومما زاد عتوّهم تمادياً صمود إبراهيم في موقفه وتسفيه عقولهم وتحقير آلهتهم:

﴿أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ۝ قَالُوا حَرِّقُوهُ وَانصُرُوا آلِهَتَكُمْ إِن كُنتُمْ فَاعِلِينَ ۝ قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ﴾(1).

ويدق الجرس معلناً نهاية الدرس بقسميه: النظري والعملي فكانت النار برداً وسلاماً تحوّلت لفحات لهيبها نسيماً عليلاً منعشاً لطيفاً، وباء حكم القوم بالفشل الذريع وسلم إبراهيم من كل سوء، فهو صاحب العجل الحنيذ، وصاحب الطير، وصاحب النظرة المتأملة في الكواكب والقمر والشمس، وصاحب المحاجة مع من أوتي المُلك والقوة المادية. إنه الأسوة الطيبة لمن أراد التأسّي في الكفاح والصبر والنضال والثبات.

﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ إِسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَآءُ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ﴾(2).

ويمتحن ابراهيم في ابنه اسماعيل كما ابتلي من قبل بعصيان أبيه. ولكن الدرس مختلف اختلافاً جوهريًا: تمرد وتهديد، وطاعة وامتثال:

﴿يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ﴾(3) ﴿يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ...﴾(4).

مواقف متناقضة ودرس عملي تطبيقي خاض تجربتها إبراهيم عليه السلام، فعاش أحداثها وتفاعل مع مشاهدها زماناً ومكاناً، فكانت حصيلة مما

(1) سورة الأنبياء، الآيات: 66-68.
(2) سورة الممتحنة، الآية: 4.
(3) سورة مريم، الآية: 42.
(4) سورة الصافات، الآية: 102.

استوعب صفوة السمات التي هيّأته فيما بعد أن يكون ﴿أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾[1].

ولم يك ممن حادوا عن المنهج القرآني؛ فهو قد كان حريصاً على التقيّد الدقيق بتعاليمه في عرضه لأفكار الدرس ملتزماً بتهيئة الجو الحواري الذي يجمع بين طريقتين: الاستقراء والاستنتاج.

ففي درسه العملي مع ابنه إسماعيل نراه يطلعه على التفاصيل الدقيقة ويطرح أمامه القضية عارية صريحة ليستوضح رأيه صريحاً عارياً. مكاشفة تربوية بين الأب وابنه في مجال التضحية والفداء والطاعة والامتثال.

إنها النماذج الخيِّرة والقدوة الصالحة. ابن يُؤخذ رأيه. فِيمَ؟ في أن يمدّ عنقه للمديّة الحادّة طائعاً مختاراً.

إنها الصورة المنامية يرسمها إبراهيم كما يراها، في إطار نابض بالحركة المؤلمة المحزنة ذابح وذبيح ضجيع، فكأن الحركات المتداخلة والعواطف الحزينة المكبوتة التي تكاد تتفجر ماثلة أمام المشاهد ﴿**أني أذبحك...**﴾. وإبراهيم يقدم ليتم حلقات التجربة العملية في ساحة الامتحان العسير.

وفي الدقائق الحرجة حيث لم يبق سوى ثوان على اللمسة الأخيرة تخطها ريشة المأساة الدامية، يصدر النداء الإلهي معلناً نتيجة نجاح إبراهيم عليه السلام، حيث يظفر بجزاء المحسنين والإيمان والبشارة والسلام.

وينجو إسماعيل عليه السلام، بعنقه من شر تلك المديّة الحادّة؛ لتبقى سنة الفداء بالذبح العظيم خالدة على مدى تعاقب الأجيال.

﴿فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَىٰ فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانظُرْ مَاذَا تَرَىٰ قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ ﴿١٠٢﴾ فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ ﴿١٠٣﴾ وَنَادَيْنَاهُ

(1) سورة النحل، الآية: 120.

﴿أَن يَـٰٓإِبْرَٰهِيمُ ۝ قَدْ صَدَّقْتَ ٱلرُّءْيَآ ۚ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ۝ إِنَّ هَـٰذَا لَهُوَ ٱلْبَلَـٰٓؤُا۟ ٱلْمُبِينُ ۝ وَفَدَيْنَـٰهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ﴾ (1).

أنشودة العمل:

يواصل إبراهيم عليه السلام عرض دروسه العملية. ففي دروسه السابقة كان اهتمامه منصبًّا على البحث عن سبل العلاج للنفس البشرية في مختلف اتجاهاتها. أما درسه هذه المرة، فقد انحصر في دائرة التعامل مع حجارة صماء لا ترى ولا تسمع ولا تحس ولا تشعر، تستقر حيث تُوضع، وتثبت حيث تُلقى. إنه يقتنيها لتلتئم في صفّها مع لَبِنَاتها الأخريات ليُقام الجدار وتُرسخّ قواعده. لا كالمرة الأولى يحطّمها لتبقى جذاذا متناثرة.

تلك آلهة اتُّخذت، وهذه نقية طاهرة اصطُفيت. يقيم إبراهيم وإسماعيل منها قواعد البيت العتيق، ذلك الذي سيبقى مثابة للناس، وأمناً خالداً على مدى الدهر. إن إبراهيم في درسه هذا لم ينتق طريقة الحوار ولم يسلك طريقة الإلقاء، وليس بحاجة إلى الوسائل المُعِيْنَةِ أو ما يدعو إلى التشويق والإثارة، ولكنه يبحث عما يوقظ فيه الحيوية والنشاط، ينقّب عمّا يمدّه بالقوة التي تُعِيْنُه على حمل الحجارة لتستقرّ في مكانها. ويرتفع الصوت تُردِّد صداه حنايا ذلك الوادي السحيق:

﴿رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾

أنشودة العمل التي ينبغي أن تردّد صداها جنبات المصنع والحقل، وأن ترتفع بها حناجر المنتجين في كل مكان، وأن يعلو بها صوت الجنود في معارك الفداء.

إنها استحضار لتلك الصورة الرائعة: حجر يوضع ليكوّن جداراً من الإيمان، جهود تُبذل امتثالاً لأمر الله، أشعة شمس محرقة لاسعة، عرق يتصبّب.

(1) سورة الصافات، الآيات: 102-107.

﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ۝ رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ۝ رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾[1].

ويتم إبراهيم عليه السلام، كلماته التي اختير بها، فيصبح باستيعابه تلك الأوامر والنواهي إماماً للناس، ولكنّه باستحقاقه هذه الصفة لم ينس ذريته، إلا أنه يتلقى المعلومة التي توضح له أن الإمامة لا ينالها إلا من توافرت فيه الأهلية، التي اكتملت مقوماتها في إبراهيم منذ نشأته وتربيته في أحضان المدرسة الإلهية فقد تحلت شخصيته بتلك المبادىء:

1 - ضبط النفس في حالتي السرور والحزن.

2 - كمال الأخلاق العظيمة وصفاء الروح.

3 - الاستقامة الإنسانية التي تتضمّن مختلف جوانب الحياة.

4 - صلاح العمل الذي يصوّر الرشد الإنساني في أجلى معانيه ويُجسّد النضج البشري في أرقى كمال.

﴿۞ وَإِذِ ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾[2].

ويوسف عليه السلام، يخوض التجربة المريرة منذ حداثة سنّه، فيتعرض للاختبار القاسي نتيجة الغيرة التي تحولت في تطورها إلى حسد مدمّر امتدت ألسنته فالتهمت قلوب الإخوة فاندفعوا يكيدون، ويدبّرون ويتآمرون، ويضمرون السوء. ويبدأ الدرس بالرؤيا المنامية كتمهيد للأحداث التي ستتلاحق وتتوالى.

---

(1) سورة البقرة، الآيات: 126-128.

(1) سورة البقرة، الآية: 123.

وليست الرؤيا هذه كتلك. رؤيا أبيه إبراهيم عليه السلام، لا ذبح فيها ولا دماء، ولكنّها كوكب وشمس وقمر وسجود.

ويحرص الأب منبّهاً ابنه على ألا يذيع لرؤياه سرًّا. ولكن الإخوة يعقدون اجتماعاً ليناقشوا فيه جدول الأعمال الذي يتضمّن قضية التخلّص من يوسف. فهم قد أجمعوا على المبدأ ولكنهم اختلفوا على الكيفية. من الإخوة من رأى التصفية الجسدية أو طرحه «إبعاده في أرض مهلكة». ومنهم من ذهب إلى أن إلقاءه في غيابات الجب أمر قد تلتقي حوله الآراء، وفعلاً، وُوفِقَ عليه بارتياح. غير أن ما استجد من عمل قد بقي، هو اقناع أبيهم على أن يرسل معهم يوسف؛ ليقضي يوماً طيباً في لعبٍ ومرحٍ حتى يتم تنفيذ العملية.

ثم وعدوه بأنهم سيحافظون عليه، وذكّروه بأنهم أقوياء، فلا يمكن أن يعتدي ذئب عليه.

والأخوة قد صرّحوا بالدافع النفسي الذي ألجأهم إلى ارتكاب ما فعلوه، هو أن أباهم قد خصَّ يوسف وأخاه بحبٍ حيث لم يعد لأحد مكان في قلبه سواهما.

وعلم النفس الاجتماعي يقرر بأن الإنسان يشعر بانفعال الحسد لمن يمتاز عليه بأي ميزة في أي مجال من مجالات الحياة.

الذئب البريء:

ويدخل الذئب كعنصر في القضية، حيث تُلصق به تهمة الاعتداء على يوسف وتُلفق الفِرْيَةُ بإحكام، ويجيء الإخوة عشاء يبكون، أو يتباكون، حيث يبقى الغلام في جبه مُلقى. ويستقبل الأب الخبر وهو يدرك بأن ما توقعه قد حدث، ويرى الدليل الملفّق بين يديه: قميص يوسف عليه قطرات من دمٍ كَذِبٍ. وهكذا بعد مضي فترة من الزمن سيكون القميص الممزق من دبر دليلاً على براءة يوسف:

إن الإخوة قد سوّلت لهم أنفسهم مثل ما سوّلت نفس أحد ابني آدم قتل أخيه من قبل. صور متشابهة ودوافع متماثلة ما بقيت الأيام.

وتمضي الأحداث تحدو الدرس بيوسف وتنطوي سنوات، ثم يصبح شابًا، حيث يجد نفسه في خضم امتحان من لون آخر قاتم خطير، تطبق عليه يد تملك الجاه والسلطان والثروة، فيقف وتيارات متعارضة متدافعة تتجاذبه وتوتر نفسي ضاغط يبلغ قمته.

ولحظات عنيفة لا تقاوم إلا من قبل يوسف الذي ينفلت منها عليماً حفيظاً.

في ذلك القصر المنيف، وصاحبته التي تراود فتاها المُفْتَرَى عليه. حب يدفع به إلى غيابات الجب، وحب يزج به في غيابات السجون

إخوة له في الحلقة الأولى من الدرس، وامرأة العزيز سيّدته في الحلقة الثانية منه.

﴿قَالَتْ مَا جَزَآءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوٓءًا إِلَّآ أَن يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾[1].

ويُودع البريء السجن ويمكث فيه بضع سنين. رؤياه أثارت حفيظة إخوته، ورؤيا الملك كانت يداً رحيمة انتشلته من قضبان سجنه الرهيب، حيث يخرج سيّداً يطاع لا غلاماً يباع. تصقله المحن فتصوغ منه شخصية لها وزنها وقيمتها.

فيلجأ إليه القوم لينقذهم من أزمتهم الاقتصادية التي أطبقت فكّيها على مواردهم التي كانت تمنحهم الغذاء والكساء آنذاك. وحين يحار الملك في تعبير رؤياه، ويعجز المستشارون في فك رموزها ولا من إجابة عندهم غير أنها أضغاث أحلام وما هم بتأويل الأحلام بعالمين، عندئذ يُحال الموضوع على السجين يوسف.

---

(1) سورة يوسف، الآية: 25.

التقرير الوافـــي:

ويجيبهم يوسف ـ بـما يـمكن أن نسمّيه بلغة العصر ـ بتقريرٍ وافٍ مدروسٍ يتضمّن الـمعلومات التالـية:

1 - إن الرؤيا لـيست أضغاث أحلام، ولكنها حقائق واضحة تتعلّق بـالـمشكلة الاقتصادية، فـالقضية إذن مصيرية خطيرة.

2 - إن الشعب معرّض لـمـجاعة، وهذا يعنـي الدمار والفناء إن لـم توضع خطة مدروسة للتغلب علـى هذه الأزمة.

3 - وبعد أن وضع لهم الركائز الأولـى لدراسة الـمشكلة لـم يتركهم وشأنهم، وإنـما رسم لهم تـخطيطاً شاملاً لعناصر الـمشكلة، كما لفت نظرهم إلـى أن عنصر الزمن من أهم العناصر التـي يجب أن تراعى فـي مراحل التنفـيذ.

﴿قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا فَمَا حَصَدتُّمْ فَذَرُوهُ فِي سُنبُلِهِ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تَأْكُلُونَ ﴿٤٧﴾ ثُمَّ يَأْتِي مِن بَعْدِ ذَٰلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تُحْصِنُونَ ﴿٤٨﴾ ثُمَّ يَأْتِي مِن بَعْدِ ذَٰلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ النَّاسُ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ﴾[1].

نـجد فـي هذه الآيات تكامل الـمنهج الـمركّز فـي ما يتعلّق بـالـمعلومة الاقتصادية التـي اشتـملت علـى الأسس التالـية:

1 - زيادة الطاقة الإنتاجية علـى مدى الـخطة السبعية.

2 - مضاعفة الـجهد الـمبذول الذي لا يتوقـف خلال الـمواسم الزراعية.

3 - ادخار أكبر كمية من الـمـحصول.

4 - توجيههم إلـى اتبـاع الطريقة السلـيـمة فـي كيفـية العملية التـخزينـية التـي تـحمي الـحبوب من التسوّس والتلف ﴿فَذَرُوهُ فِي سُنبُلِهِ﴾.

(1) سورة يوسف، الآيات: 47-49.

5 - ترشيد الاستهلاك وتقييده بالحد الأدنى مما يسدُّ الرمق. عمل مرهق شاق مع قلة في المطعوم.

6 - إن ثقة يوسف بنفسه جعلته يتناول المشكلة بكل صدق وأمانة بعيداً عن حل مرتجل يتقرب به إلى نفوس القوم أو يتملّق به مشاعرهم وعواطفهم؛ فقد عاش مع المشكلة في تحليل رموز الرؤيا فوجه خطابه للشعب «**تزرعون...**» لا إلى الملك وهو صاحبها؛ لأنه يدرك أن الحل لا يأتي إلا عن طريق الشعب؛ فهو الذي يشقى ويتعب، وهو الذي يواجه السنوات السبع العجاف، تلك التي ينخفض فيها منسوب المياه فتلتهم المدخر وتلتقم المخزون.

7 - ومن ثم نجد يوسف عليه السلام، يقف وقفة الواعي المدرك لما تنطوي عليه أحداث المستقبل. فيذكّر القوم بأن السنوات العجاف ستنقضي، وأن منسوب المياه سيرتفع، وأن الأرض ستكون معدّة شرهة للإنبات والعطاء، فعليهم إذن أن يحتفظوا بقلة من البذور ليزرعوها إعادة لاستثمار أرضهم.

8 - الخطة طويلة الأجل استغرق تنفيذها خمسة عشر عاماً، وقد كانت محكمة بدراستها الوافية لكل الاحتمالات التي قد تطرأ خلال مراحل التطبيق.

9 - إن يوسف عليه السلام قد حرص كل الحرص على التقيّد بأسس المنهج القرآني في توجيهاته التربوية، حيث قدم المعلومة في قالب من الرفق واللين والهدوء. «**تزرعون سبع سنين دأباً...**» أعوام الخصب والنماء فرصة ينبغي ألا تضيع؛ لأن ما بعدها سنوات قحط وجفاف.

إذن، فالخوف من المجاعة مستقبلاً وارد ولكنه خوف تأمّلي وليس مرعباً.

وعلم النفس يفيدنا بحقيقة، هي أن للخوف نوعين:

1 - خوف تأمّلي، وهو يدفع إلى التفكير وحساب المخاطر. فأولى نتائجه الحذر الشديد الذي يؤدّي إلى الانتباه المركّز لمظاهر التهديد والتفكير في الطرق البديلة لمواجهتها. وثانيها: إنه يبعث على تقوية الحاجة للحصول على ضمانات لتخفيف الانفعال.

2 - أما النوع الثاني فهو ما يسمى بالرعب العصابي، وهو حالة انفعالية تستمر درجتها عالية، وتحول دون تأثّر الفرد أو استيعابه للمعلومات الجديدة.

الحكم بالبراءة:

ولقد تكاملت الخطة بلمساتها الأخيرة، غير أن الذي بقي إنما هو اختيار من يتولى مهمة التنفيذ.

ويطّلع صاحب القصر على النتائج التي تضمّنها التقرير النهائي فيبادر بطلب يوسف أن يمثل بين يديه، وإذا بالسجين يرفض أن يخرج من سجنه قائلاً للرسول ﴿ٱرْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ فَسْـَٔلْهُ مَا بَالُ ٱلنِّسْوَةِ ٱلَّٰتِى قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ إِنَّ رَبِّى بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ﴾[1] يلفت يوسف عليه السلام النظر إلى التحقيق في قضيته لينبّه أذهان القوم إلى شيء يخصّه دونهم، وكأنه يؤثر بذلك أن يبقى حيث هو بعيداً عن جو التحقيق حتى لا يثير اتصاله بصاحب القصر شبهة التأثير على سير أحداث التحقيق، ولم يشر إلى الطرف الآخر صاحب الدعوى؛ لأنه يريد أن يضعها أمام ضميرها وجهاً لوجه بعد سماع أقوال الشاهدات.

ثم تبدأ مرحلة التحقيق بالخيط الأول، حيث يوجّه السؤال إلى النسوة اللاتي حضرن الوليمة القصرية وعرفن سر القضية: ﴿قَالَ مَا خَطْبُكُنَّ إِذْ رَٰوَدتُّنَّ يُوسُفَ عَن نَّفْسِهِۦ قُلْنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سُوٓءٍ﴾[2] شهادة النفي

(1) سورة يوسف، الآية: 50.
(2) سورة يوسف، الآية: 51.

هنا لم تكن خاصة بدائرة القضية المطروحة ولكنها وردت عامة، لقد شملت المرئي والمعلوم، إضافة إلى أن تنكير كلمة «**سوء**» ووقوعها بعد النفي إنما يشعر أيضاً بسعة العموم «أي شيء سيىء». ومن ثم تقف الحقيقة واضحة وضوح الشمس حيث لم تجد صاحبة الدعوى الباطلة بصيصاً من دليل سوى الاعتراف الصريح:

﴿قَالَتِ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ الْآنَ حَصْحَصَ الْحَقُّ أَنَا رَاوَدتُّهُ عَن نَّفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ ۝ ذَٰلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ ۝ * وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾(1).

ويصدر الحكم بالبراءة عقب الانتهاء من تجميع أدلة الإثبات ووضوح كل الملابسات التي ألقت ببريء في السجن بضع سنين. ويدعى يوسف عليه السلام للمثول بين يدي صاحب القصر، وتطيب نفسه هذه المرة، ويرحب باللقاء ليخرج طاهر الذيل مرفوع الرأس موفور الكرامة، وليكون من خلصاء الملك ليتمكّن من الإسهام في إنقاذ القوم.

﴿وَقَالَ الْمَلِكُ ائْتُونِي بِهِ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِي فَلَمَّا كَلَّمَهُ قَالَ إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ ۝ قَالَ اجْعَلْنِي عَلَىٰ خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ﴾(2).

نجد هنا تدرّجاً متقناً تتابعت فيه حلقات مقدمة الدرس من بدايتها إلى أن بلغت النتيجة التي تحكم الربط بين الخطة والمخطط.

الخطة الاقتصادية المتكاملة:

ويضع يوسف الخطة، ولكنه لم يتصوّر إطلاقاً فصل الخطة عن المخطط. فلم يشأ أن يكون بعيداً عن ميدان العمل الذي تولّى رسم خطته وعاش تطورات

(1) سورة يوسف، الآيات: 51-53.

(2) سورة يوسف، الآيتان: 54، 55.

أحداثها؛ لذا ارتضى أن يتحمّل مسؤولية التنفيذ. وسره أن ينهض بعبء - يدرك أنه ثقيل وشاق مرهق - ولكنه جدير بأن يقوم بمثل هذا؛ لأن الجدارة تكوّنت بعناصرها الأربعة التي لم يكن من بعدها كمال في أي مسؤول أنيط به مثل هذا العمل.

1 - مكين في وظيفته، صاحب منزلة رفيعة، ذو علاقة طيبة، واثق بنفسه كثقة الناس به.

2 - أمين مؤتمن في قوله وعمله، إذا تحدّث صدق، واذا عمل أخلص.

3 - حفيظ لمسؤوليته، يحفظ الود والعهد، نظيف اليد والقلب واللسان.

4 - عليم، يحيط علماً بتفاصيل ما أسند إليه من عمل، مدرك لدقائقه، يضع الأمور في نصابها، وهذا ما يعبّر عنه في لغة العصر بالرجل المناسب في المكان المناسب.

إذن، فيوسف قد جنب القوم خطر تلك الأزمة الخانقة بحذقه وسلامة توجيهه ودقة تخطيطه وإشرافه المركّز على العمل الدؤوب، وتحديد المدة وانتقاء الأسلوب، من حيث مضاعفة الإنتاج، وزيادة معدلات الإدخار وترشيد الاستهلاك وتقييده بأدنى حدّ. ثم إعادة الاستثمار؛ إذ الجهد كان يتعلّق بالنشاط الزراعي. ومن هنا ندرك أن نجاح أي مشروع يتوقّف على توافر عنصرين:

1 - الدراسة الموضوعية.

2 - الجانب الأخلاقي. فإذا وُجد العنصران؛ فالنجاح أمر لا مراء فيه، وإلا فلا تنشد نجاحاً في عمل لا يتّصف صاحبه بحميد الأخلاق.

﴿وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ ۚ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَن نَّشَاءُ ۖ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾(1).

(1) سورة يوسف، الآية: 56.

التطبيق العملي:

الدرس لم ينته بيوسف، بل امتدّ به زمن التطبيق العملي الذي بذل خلاله الكثير من الجهد؛ فقد كان يتولّى مهمة القيام بالإشراف المباشر والاطّلاع على كل صغيرة وكبيرة، يمدّ يد العون لمن يقصده سائلاً، ويتعامل مع من يأتيه محتاجاً بكل يسر وتسامح، بعيداً عن الأثرة والاستغلال والاحتكار.

يفد عليه إخوته فيعرفهم، وهم له منكرون، يلتمسون منه العون والمساعدة؛ ليميروا أهلهم وذويهم. وفي التماسهم نجد أرق عبارة وألطف طلب استدراراً لعطفه وهزًّا لأريحيته:

﴿فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَيْهِ قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهْلَنَا الضُّرُّ وَجِئْنَا بِبِضَاعَةٍ مُّزْجَاةٍ فَأَوْفِ لَنَا الْكَيْلَ وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَا إِنَّ اللَّهَ يَجْزِي الْمُتَصَدِّقِينَ﴾(1).

عقب اللقاء كان الخطاب مُشعراً برفعة مكانته وسمو منزلته وشرف وظيفته، إنه كالمقدمة التي ولجوا من خلالها إلى شرح سوء حالتهم الاقتصادية، وأن ما بحوزتهم من بضاعة لا يقبلها المتبايعون لرداءتها، ليتنبّه إلى أنهم بحاجة إلى لفتة جود وإحسان تسدّ جوعتهم، وتبعد عنهم شبح الفقر والفاقة. وينتهز يوسف لحظة الخضوع النفسي، فهي فرصة ثمينة لإتاحتها في إبان الالتماس، فيبادر بتذكير الإخوة بما فعلوه به وبأخيه من بعد. ويعاد شريط الذكريات من بداية المأساة. وتنقدح في الأذهان صورتها بكل تفاصيلها من بعد أن انطوت عليها سنوات وسنوات. ويقف الإخوة في مدٍّ وجزرٍ نفسي: موقف انفعالي تتدافع فيه ألوان شتى من الاستغراب والعجب، ولكن يوسف يرخي ستارة المشهد بالعفو والتسامح والتجاوز عما حدث مبيّناً للإخوة أن الظفر بالحسنى والأوبة بجزاء المحسنين إنما يتحقّق بدعامتين، هما:

1 - التقوى .   2 - الصبر.

---

(1) سورة يوسف، الآية: 88.

﴿قَالَ أَنَا يُوسُفُ وَهَٰذَا أَخِي قَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا إِنَّهُ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾(1).

ويعترف الإخوة بأنهم مخطئون، ويبدو شعورهم بالذنب واضحاً في تصريحهم بأن أخاهم يوسف قد فضّله الله بفوزه في الامتحان الذي اجتازه بنجاح. ثم يبدأ الحلقة الختامية بالتخفيف عن إخوته مما هم فيه من كرب وغم، فيرفع عنهم الحرج، ويتوجّه إلى الله سبحانه أن يغفر لهم ويرحمهم، ويتحوّل فيبادر إلى تغيير الموقف لينتشلهم من دائرة أحزانهم إذ يطلب منهم أن يذهبوا بقميصه فيلقوه على وجه أبيهم ليرتد بصيراً.

والقميص هذه المرة لم يكن قميص الغلام الملطخ بالدم.

ولم يكن قميص الشّاب الممزّق من الخلف.

ولكنه قميص يحمل ريح يوسف العزيز: ﴿إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلَا أَن تُفَنِّدُونِ﴾(2)

فكانت بداية الدرس غدراً فامتحاناً فصبراً. ونهايته عفواً وتسامحاً من بعد كفاح مرير من أجل غرس المثل العليا والقيم الرفيعة.

الفروق الفردية:

يوضح المنهج القرآني مفهوم التباين بين الأفراد في القدرات والمواهب ودرجات الذكاء، فيضع الأسس التي ينبغي أن تُستخدم كوسيلة لتوصيل المعلومة في قالبها التربوي الذي يتلاءم وحالة المُتلقّي في تنوّعها وفق الفروق الفردية.

فالقضية الواحدة قد تعالج بأساليب مختلفة تتدرج مع المستويات ذات التنوّع من حيث سلّم الذكاء والموهبة والقدرة. وكذلك، من حيث مقتضى

(1) سورة يوسف، الآية: 90.
(2) سورة يوسف، الآية: 94.

الحال الذي يخضع في تغييره لتوجّهات قد تمليها ظروف بيئية، أو اجتماعية.

فالطرق، إذن، متعددة، وعلى المعلم أن يختار أقلّها جهداً، وأوفرها فائدة، وأجلّها مردوداً تربويًّا.

فمن كانوا مثلاً، ذوي استعداد لتقبّل الحكمة وقابلية لتشربها قدمت إليهم في إطارها سائغة سهلة.

ومن لم يؤهل لذلك أعطيت له المعلومة بطريقة تحمل العظة التي تنفذ إلى القلب فتنفث في مشاعره وإحساسه صورة مليئة بالحركة نابضة بالحياة.

أما من لم يتّصف إلا بالمكابرة والمعاندة، فإن الدرس يُلقى إليه بالطريقة التي تتّسم بالجدال. والجدل إنما يعني اللّدد في الخصومة والقدرة عليها، ولم يكن على إطلاقه بل قيّد بكونه جدالاً حسنا في ثناياه لين، تأنس اليه النفس الجامحة وفي مقدماته هدوء يطمئن لرقته القلب الجاحد لبقاً ينجذب بلطفه العقل النافر.

إنه جدال، ولكنّه في ثوب حواري يصل بصاحبه إلى وضوح الحجة المقنعة ويرشده إلى الدليل الذي يبلغ بهم درجة الوعي والإدراك، ويشعره بأنه ذو رأي يعتدّ به ليوقظ في نفسه عوامل الإلفة والانسجام والإحساس بأن التأثير والتأثّر عملية قد تبودلت في جُوٍّ نفسي متآنسٍ مع المعلم. إذن، هناك ظل من العلاقة قد شمل الموقف التعليمي، فإما أن يثمر أجل الفوائد ويحقق أسمى الأهداف، وإلا فإنه على الأقل يبقى شيئاً من ظل المودة محفوظاً.

﴿ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾[1].

---

(1) سورة النحل، الآية: 125.

إن الدرس في هذه الآية الكريمة قد احتضن الأسس التالية:

1 - الترتيب الذي يتدرّج وفق التطورات النفسية، فيذكر أولاً، الحكمة كطريقة لوضع اللبنة الأولى لإرساء قواعد الدرس.

2 - لأن الحكمة تتجاوز بمفهومها مرحلة إثارة العاطفة وإيقاظ المشاعر إلى مرحلة السلوك العملي القويم.

3 - الحكمة تعني بمختلف اشتقاقها اللغوي اتقان الأمور والتصرّف بروية وتؤدة.

4 - إن الحكمة ثمرة من ثمار الدراسة الموسّعة لشتى الاتجاهات النفسية سطحاً وعمقاً وجذوراً ﴿وَمَن يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا﴾[1].

5 - إن الدرس قد حُدّدت معالمه، ورُصدت مساراته التربوية، حيث إن الدعوة دعوة إلى سبيل رَبَّاكَ الذي رَبَّاك في مدرسته لا لسواه، إذ لا فضل للداعي إلا أنه يؤدّي واجبه خالصاً لوجهه الكريم وهو واثق من أن أجره - بعد ذلك - على الله.

6 - ختام الدرس توجيه إلى المعلم بأن يسير في طريقة التطبيق سير الصابر الدؤوب الذي يَكل الأمر لله بعد الأخذ في الأسباب والتقيّد بتعاليم المنهج كمّا وكيفاً، مع الاحتفاظ باتّزانه الشخصي الذي يُطَأمِنُ من حماسه واندفاعه ويبعده عن دائرة الملل والسأم.

﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾[2]

ولم نزل في رحاب الدرس حيث يتحوّل بنا إلى جانب آخر وهو جانب المواجهة المسلّحة التي أدّت إليها سطحية المعاند فلجأ إلى رفع السلاح للقضاء على منابع الدعوة.

(1) سورة البقرة، الآية: 268.
(2) سورة النحل، الآية: 125.

إذن فلتسكت لغة المنطق حيث لم يبق لحسن الجدال مكان؛ لأن الحال اقتضت أن يكون للغة السنان جولة دفعاً للباطل وذوداً عن حياض الدعوة، وحماية للعزة والكرامة. فللدرس أسلوب في مجال الصدام المسلح وله قواعد يرسيها لتكون دستوراً يُتبع ومنهجاً يُقتفى، ولكنه لم ينأ عن دائرة العدل، إنه يقف بمن وعاه ليضع يده على عزة الدعوة التي أعزّته وكرّمته، وليذكره بأن الدعوة العزيزة الكريمة هي الأجدر بأن تتبع، وأن دعاتها في كل الحالات عادلون، وبذلك يكونون أمناء على إقامة الحق في هذه الأرض. والحق هو القوة التي تدحض الباطل، وتلوي عنق الشر إن وقف أصحابه والإيمان يغمر قلوبهم يقدمون وهم يرون ألا مراء في عقيدتهم عندئذ يردون الاعتداء ويعاقبون بالمثل، فلا يتجاوزن المقدار ولا يتعدّون الحدّ الذي رسمه الله.

إنهم يعفون ويصبرون إذا كان للعفو والصبر أثر أعمق وفائدة للدعوة أجل وأكبر.

﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّابِرِينَ ۝ وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ ۝ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوا وَّالَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ﴾[1].

1 - فتوجيه الدرس في مقدمته عام شامل يلفت نظر الجميع إلى التركيز الذهني لاستيعاب المعلومة التي تصوّب خطوات النفس قبل صيرورتها عملاً يجاوز الحدّ الذي رسمه المنهج القرآني.

2 - إن قضية المثلية قضية عادلة، والعدل مبدأ لا ينمو إلا إذا أحيط بسياج دقيق يحميه من الانفلات الذي قد ينشأ عن عدم الانضباط النفسي في حالة هول الموقف.

3 - إن الدعوة إلى الصبر كانت عامة أيضاً، والصبر لا يتحقق إلا بمقاومة

(1) سورة النحل، الآيات: 126-128.

الانفعال، بكبت الفطرة، بمجاهدة النفس؛ لأنه طريق يوصل إلى الخير، وطريق الخير محفوف بالمكاره.

4 - الخطاب فيما تقدم كان بمثابة التمهيد والتهيئة لنفسية النبي صلوات الله عليه ليتقبّل التوجيه الإلهي. ولما انقضت فترة الإعداد سيق الخطاب مباشرة.

5 - ولما كان للصبر مرارته وصعوبته، فلا أحد يتغلّب على ذلك إلا بمعونة من الله عز وجل؛ ليكون زاداً وفيراً لمسيرة الكفاح.

6 - ثم يأتي التوجيه الذي يرشد إلى نبذ الحزن والضيق على أحداث الماضي أو مكر تذيبه حقيقة عدلك وصدق عزيمتك في الكفاح والنضال؛ فللماضي آلامه، وللحاضر همومه، فلا تكن موزّعاً بين هذا وذاك؛ لأن المستقبل ينتظر منك التفرّغ التام لتعدّ العدة لخوض المعارك الدفاعية والتصدي لأعداء الدعوة.

7 - خاتمة الدرس بلورت الحصيلة النهائية، فأوجزتها في كلمتين اثنتين، هما: التقوى والإحسان جاءتا كنتيجة بدأت مقدمتها بالتشويق الذي سار في خطّه التصاعدي؛ ليزداد التلهّف إلى الفوز بمعية الله، ومن كان الله معه نجا من براثن الحزن وتخلص من قبضة الضيق: فالضيق كما يفيدنا «علم النفس»:

هو حالة، أو موقف، أو منبّه تستثير القلق وتحدث التوتر؛ لذلك كان أسوأ معوق يعوق مسيرة الدعوة ويبطيء خطواتها؛ لأنه حالة نفسية عميقة الأثر ترهق صاحب الدعوة، فتشلّ تفكيره وتوقف انطلاقته؛ فهو نتيجة مكر الأعداء، والمكر خداع واحتيال وإضمار للشر المبيت في الخفاء ملفوفاً بثوب من الحقد والبغض والكراهية.

ولكن المنهج القرآني يقرّر القاعدة التي تضمن أمن المسيرة في سيرها نحو أنبل غاية وأسمى هدف.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ﴾[1].

وإن مراعاة الفروق الفردية كطريقة اعتمدها المنهج القرآني لتبدو واضحة في جوانب متعددة من جوانب التطبيق التي تبرز في المواقف التعليمية؛ فقد كان رسولنا عليه السلام، يتلقّى من التوجيه الإلهي أجمل إشارة بأرقّ عبارة وألطفها؛ ليرشده إلى مراعاة اختلاف الناس في مقدار استيعابهم ومدى استجابتهم وإقبالهم وإعراضهم. ولم يكن الرسول يسره مثل هذا الإعراض، ولكنه يحزنه أشدّ الحزن أن يرى ذوي القوة والمنعة والجاه على مثل هذه الحال؛ فيقبل عليهم ليّناً هيّناً ليستميلهم، ولو كان في ذلك تأجيل لسواهم، ممن تدفعهم الرغبة الملحة إلى الاستزادة من العلم، وهؤلاء قد تفتّحت قلوبهم بنور الإيمان، فهم أهل حكمة، وسبيلهم سبيل خير، فلا ضير أن ينتظروا وإن ملّهم الانتظار.

فالإيمان واقٍ، أما أولئك فهم في حاجة إلى أن يولوا عناية مكثفة، وعلاج قد يستغرق وقتاً؛ ولأن صاحب الدعوة حريص؛ فحرصه لا يدع له فرصة إلا ويدفعه إلى اغتنامها، ولا طريقة بغير أن يهيىء وسائل تجربتها، ولكن التعديل الإلهي يوقظ وينبّه ويرشد إلى أقرب الطرق وأقلّها جهداً وأوفرها ثمرة.

فللمنهج وعاء زمني فلا ينبغي أن يضيع فيما لا يجدي، فالوقت يمضي وما مضى فلن يعود إلا بذكرياته ومنجزاته

﴿وَأَنذِرْ بِهِ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَن يُحْشَرُوٓا۟ إِلَىٰ رَبِّهِمْ لَيْسَ لَهُم مِّن دُونِهِۦ وَلِىٌّ وَلَا شَفِيعٌ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ۝٥١ وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِىِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَىْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِم مِّن شَىْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾[2].

(1) سورة النحل، الآية: 128.
(2) سورة الأنعام، الآيتان: 52 ,53.

ومن ثم تتحدّد محاور الدرس فيما يلي:

1 - مهمة الرسول التي لا تتجاوز دائرة التوضيح والكشف لحقيقة ما يعرّضهم لعقاب الله في الآخرة.

2 - إن هذا الكشف يحمل في طيّاته مؤثراً يحفّز من يستجيبون إلى التمسك بامتثال أوامر الله واجتناب نواهيه.

3 - فرز هؤلاء الذين أودعت فيهم موهبة الذكاء، فكانوا في المرتبة الأولى لسرعة استجابتهم وكمال وعيهم بما يُلقى إليهم من جزئيات المنهج وتفاصيله.

4 - تحديد مصدر الخوف في خطه المتواصل الذي يؤدّي إلى درجة التقوى

﴿ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَن يُحْشَرُوٓا۟ إِلَىٰ رَبِّهِمْ﴾[1]

5 - ثم يرد التعديل التوضيحي لمفهوم القيم كما يقررها المنهج القرآني من أن مكانة المرء تتحدّد بقوة إيمانه لا بعنجهية سلطانه.
وأن تقوى الله هي التي تسمو بالإنسان إلى أعلى الدرجات من الإكرام والتبجيل.

6 - ثم تأتي الخاتمة بالتصويب الإلهي؛ لتجعل الإيمان هو المعيار الحقيقي الذي تقاس به منزلة المؤمن كمسوغ يرشحه لأن يكون أحد الذين يُحتفى بهم في مجلس رسول الله، فهم أولى بالتكريم وأجدر بالتقدير وأحق بحضور الدرس وفق شروط القبول التي قرّرها الله لعباده.

وهكذا، نرى الذين لم يؤتوا شيئاً من سعة الإرادة وعمق التفكير يلجأون إلى القشور في تناولهم القضايا المعنوية؛ لأن ذكاءهم لم يُسعفهم ولم يرق بهم من خلال عالم الأشياء المحسة إلى الإدراك المعنوي.

فقد يقف بهم عند السفح فيخلدون إلى الأرض حيث لم يستطيعوا النفاذ من قاعدة المثلث الطفلي، فيظلّون بين أضلاعه أطفالاً في تفكيرهم وتصرفاتهم ولو كانوا كباراً في عمرهم الزمني. أما عمرهم العقلي، فإنه يبقى

حبيس الملموس والمنظور والمسموع، وما هو في حيز الذوق والشم؛ لذا يؤودهم استيعاب ما انتظمته دائرة المعاني: كقضية الإيمان والتوحيد والبعث والجزاء، ورغم الأدلة التي تساق في إطار مدركاتهم الحسيّة؛ فإن غشاوة تدنيهم في سلم الذكاء قد تحجب عنهم نور الحقيقة، وتطمس معالم طريق الحق أمامهم.

فيستسلمون إلى الإغراء المادّي.

ومن خصائص هذا الإغراء أن يفقد الإنسان الطفل إدراك الكيف والنوعية في الوقت الذي يطلق له العنان في خط الإدراك الكمّي والحجمي.

ويتمادى الإنسان الطفل في هذا الاتجاه حتى يبلغ مرحلة يرفض فيها كل ما عداه، ويظل مسترخياً مع تيار الرفض هذا إلى أن ينسلخ من آيات الله، فيرى الحياة الدنيا هي الغاية التي لا غاية سواها، ويركض وراء زخرفها وينساق مع بريقها بغير وعي، حتى إذا صدمته الحجة الدامغة فإنه عندئذ يتحول إلى الوسيلة الماديّة ليتعلق بها، فيخلق منها موصلاً جيّداً في نظره إلى الحقيقة التي لا تقع في دائرة حسه.

فالمشركون حين يسألون عمن خلق السموات والأرض فلا إجابة لهم سوى أن الله هو وحده الخالق.

ولكنهم يعجزون عن إدراك الحقيقة فيدفعهم عجزهم إلى صنع الوسيلة المادية التي يتخذونها من حجر يُعبد؛ ليقربهم إلى الله زلفى.

وهذا التصور لم يختف من عالم المادّة؛ فهو باقٍ في كثير من المشاهد والمواقف المتكرّرة، غير أنه يتقمّص أشكالاً أخرى قد تبرز أحياناً في ثوب وهمي، أو تبدو أحياناً أخرى في قالب خرافي يُنسج اعتماداً على سلبيات يغذّيها الوسط الاجتماعي الذي يقعد به إدراكه الواهي في هوّة الجهل والضلال. فيتخذ من هواه أو من ماله وقوته وجاهه آلهة تفتنه عن الاتجاه السليم وتسخره عبداً يقبع تحت سيطرتها الخادعة.

﴿* أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَٰهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِ غِشَاوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِن بَعْدِ اللَّهِ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ۝ وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ وَمَا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ﴾(1).

قبسات الدرس وضحت حالة صنف من الناس قد ضمّهم المنهج القرآني إلى أولئك الذين تقف بهم مداركهم عند موضع أقدامهم، فلا يرون ما هو أبعد من ذلك ولو كان البعد قيد أنملة، إنهم يجمدون في زنزانة أفكارهم التي يسيّجها هواهم المتقلّب ظهراً لبطن، وبطناً لظهر، يكرّرهم ويكرروُنه؛ لأنهم ارتضوه إلهاً فاتخذوا منه مصدراً لتصرفاتهم وأحكامهم ومشاعرهم وتحركاتهم، أسلموا إليه وجوههم وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعاً، ولكنهم لا يفقهون، فلقد كان خضوعهم مشيراً للدهشة والاستغراب حيث هوت نفوسهم المريضة هواها السقيم.

وفي التعبير بالهوى إيحاء إلى التردّي والهلاك والسقوط: لأن مادة: ـ «هـ و ى» في تنوع اشتقاقها إنما تدور حول معنى واحد هو السقوط ومن يسقط ـ فلا ريب ـ هالك خاسر وإذا كان خسرانه بهوى نفسه فإن حالته تدعو إلى الاستنكار والاشمئزاز. فأي تيه هذا الذي يسدّ منافذ العقل!؟

وأية حيرة حيث لا ملامح للحق تبدو ولا بوادر للهداية تلوح؟ الحياة عندهم شوق قصير ولحظة زمنية تمرّ، فإذا انقضت انقضى معها كل شيء. دهر يطحن ليموت من الأحياء من لا يدركه الموت.

وإلى هنا تقف الخطى، وينتهي الدور وتغيب شمس الحقيقة حيث لم يبق سوى ظلام الهوى يرخي سدوله ﴿فَمَن يَهْدِيهِ مِن بَعْدِ اللَّهِ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾(2).

(1) سورة الجاثية، الآيتان: 22، 23.

(2) سورة الجاثية، الآية: 22.

لا أحد يملك الهداية ولن يستطيع مهما حاول، ولكنه لم يعف من المهمة. فمهمة التبليغ ـ إذن ـ قائمة باقية، فعلى المعلم ألا يُحجم عن مواصلة السير، وعليه ألا يظن أن للمسؤولية نهاية وحدًّا.

فهو قد اختير ليتذكّر ويتّعظ قبل أن يكون واعظاً، وأن يفقه المعلومة ليوصلها إلى مستقرها من الأذهان بطريقتها التي رسم خطوطها المنهج القرآني.

التوجيه خلال الممارسة:

ولقد دأب المنهج القرآني على التوجيه المتواصل للذين اختيروا لتأدية الرسالة؛ فهو يوضح أن القيام بمهمة الدعوة يتطلب الحرص اليقظ على التمسّك بتطبيق الأسس التي وضعت لضمان نجاحها.

فكان التوجيه يتخلل الممارسة العملية في أثناء الاتصال المباشر، حيث يقترن بالفعل ويصاحبه ليكون أقوى مفعولاً وأشدّ أثراً حتى يتسرّب إلى داخل النفس، فينير لها طريق الحق ويوقظها إلى أن مسالك الدعوة متنوعة في مجالها وفق المقتضيات التي تقتضيها المواقف التعليمية.

فإذا كان الموقف يتعلّق بتقرير حكم؛ لينتفي غيره، فإن طريقة الدرس قد يتم عرضها في صورة عملية داخل إطار زمني يضم حركة العناصر وتحديد الاختصاصات ليتسنّى للتوجيه توضيح المسار في حالة ركون النفس البشرية إلى واقعها، أو ميلها لما يجوز على البشر فعله نتيجة تصورات قد يؤثرها العقل ملاينة أو تطلعاً لتقديم الأولويات، مراعاة لترتيب جزئيات المنهج، غير أن التوجيه الإلهي قد يأتي ـ كالربيع في إبانه ـ ليجلو ملامح الطريقة التي سيتم على ضوئها عرض المعلومة:

﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُبِينًا ۝ وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِي

﴿... أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَٱتَّقِ ٱللَّهَ وَتُخْفِى فِى نَفْسِكَ مَا ٱللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى ٱلنَّاسَ وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَىٰهُ فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَٰكَهَا لِكَىْ لَا يَكُونَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِىٓ أَزْوَٰجِ أَدْعِيَآئِهِمْ إِذَا قَضَوْا۟ مِنْهُنَّ وَطَرًا وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ مَفْعُولًا ﴾[1]

مشتملات الدرس تبدأ بمقدمة تنطوي على الفوائد التالية:

1 - تقرير مبدأ الطاعة والامتثال لحكم الله الذي ورد على لسان نبيه حيث لم يبق للخيار مكان.

2 - إن رفض الحكم عصيان والعصيان ضلال وتمرد عن الحقيقة التي ستأخذ مجراها عبر مراحل التنفيذ تغلّباً على كل المعوقات إلى أن تبلغ هدفها النهائي.

3 - ولأن القضية ليست مطروحة للنقاش، فهي لا تحتمل أخذاً ولا ردًّا.

4 - وما تكاد تتم المرحلة الأولى من الدرس حتى يطل شبح الصراع النفسي بين الزوجين فتتفاقم هوته ويشتدّ النفور متطوراً بالغاً قمته ويستعصي الحل، فلا أمل إذن سوى اللجوء إلى النبي صلوات الله عليه، الذي لم ير غير الدعوة إلى الوفاق والإلفة والتغلّب على الجفاء الممضّ.

5 - إن الدعوة لم تجد مكاناً يسعها في نفس كل من الزوجين، فالخلاف ظل ينمو حتى أفرخ كراهية.

وما ذلك إلا نتيجة الخلفية الطبقية المركوزة في ضمير المجتمع آنذاك.

وليس في إمكان الفرد التخلص من عادات وتقاليد نشأ في أحضانها وتغذّى بلبانها، فامتزجت بكيانه وحياته.

ولقد كان هذا الذي حدث عوناً ـ ولحكمة يعلمها الله ـ على التوطئة

---

(1) سورة الأحزاب، الآيتان: 36، 37.

للشروع في تغيير اتجاه المجتمع والتغلّب على عناصر المقاومة لتقديم الجديد الذي لم تألفه النفس في ظروفه المناسبة.

6 - ويبقى النبي في محيطه الاجتماعي يحسّ بالخشية والحياء مما يقال، وهو صاحب الدعوة الذي عُرف. غير أن القيام بهذا العبء جسيم مؤلم. ومَنْ مِنَ الناس ينهض به؟ لا أحد سواه، إنه سيواجه كل المصاعب. والتوجيه الإلهي يدفعه. فالأمر إذن باد لا محالة، والدرس ماض في شرحه بفصوله إلى حيث ﴿لِكَيْ لَا يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَرًا وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا﴾[1].

7 - أما خشية الناس، فهي مرفوضة في هذا الموقف؛ لأنها وضعت في كفة الميزان مع خشية الله، وكيف يعقل أن تكون في أحقيتها مقدمة على خشية الله الذي خلقها وصاحبها؟

وتنسجم حبّات العقد الزمني متعاقبة في تناسق واتساق، بداية بزواج زينب من زيد فطلاقها، ثم زواج النبي منها، وهو المشهد الأخير في فصول الدرس. ولم تمر هذه الأحداث بيسر وسهولة؛ فلقد كانت مفاجأة أثارت انتباه المجتمع الإسلامي حينذاك، وفي الوقت نفسه أتيحت فرصة مُؤاتية للمنافقين أن تنطلق ألسنتهم تشويشاً وتعويقاً بأن محمداً قد تزوج حليلة ابنه زيد الذي سبق أن تبناه.

﴿مَا كَانَ عَلَى النَّبِيِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ اللَّهُ لَهُ﴾[2]

ويتقبل المجتمع الإسلامي إبطال عادة التبنّي وما يترتّب عليها من آثار.

﴿ادْعُوهُمْ لِآبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ فَإِنْ لَمْ تَعْلَمُوا آبَاءَهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ

---

(1) سورة الأحزاب، الآية: 37.

(2) سورة الأحزاب، الآية: 38.

﴿وَمَوَالِيكُمْ وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَا أَخْطَأْتُم بِهِ وَلَكِن مَّا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾[1].

ومما يفيده «علم النفس» في هذا المجال أن من أسباب الصراع النفسي كبت الرغبة وعدم تحقيقها وإبرازها إلى حيز الوجود.

وهذا الكبت يتمثّل في الجوانب التالية:

1 - الموانع الطبيعية والاجتماعية التي تقف حائلاً دون تحقيق ما تصبو إليه النفس.

2 - العيوب الخِلقية التي تُعجز صاحبها عن بلوغ الهدف المنشود.

3 - اضطراب الحوافز الذي يؤدّي إلى التردّد المُقعد عن العمل، حيث يصبح الاختيار أمراً شاقًّا عسيراً.

وقد تكون الضوابط التي يرتضيها المجتمع عائقاً نتيجة خلل في تركيبته الاجتماعية، وعدم وعيه للمفاهيم والاتجاهات الجديدة التي تودّ بثّها دعوات الإصلاح.

ومن ثم، يقع بعض الأفراد فريسة الصّراع النفسي الذي قد يَصير في تطوره مرضاً يتعذّر علاجه إن لم تسعفه الاستجابة إلى حافز جديد يعمل على تعويض ما فقد.

لذا، كان من خصائص المنهج القرآني ألا يقتصر توجيهه على التعديل الذي يمسّ الجانب العملي، بل يتجاوزه فيغوص في أعماقِ النفس ليستلّ منها سخائم الأثرة، ويبعد عنها شبح الأنانية المقيت، ويتحرّى في مختلف وسائل علاجه الدقّة التي لا تحاكى في سموها عندما يتعرّض لوصف آثار الانفعالات النفسية التي تبرزها ملامح الوجه باعتبارها المرآة العاكسة لمشاعر الإنسان. والأدلة على مثل هذا المسلك أكثر من أن تحصى، فنراها في حشد من الحوادث مبثوثة في ثنايا القرآن الكريم.

(1) سورة الأحزاب، الآية: 5.

﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ① أَن جَآءَهُ ٱلْأَعْمَىٰ ② وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُۥ يَزَّكَّىٰٓ ③ أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ ٱلذِّكْرَىٰٓ ④ أَمَّا مَنِ ٱسْتَغْنَىٰ ⑤ فَأَنتَ لَهُۥ تَصَدَّىٰ ⑥ وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَّكَّىٰ ⑦ وَأَمَّا مَن جَآءَكَ يَسْعَىٰ ⑧ وَهُوَ يَخْشَىٰ ⑨ فَأَنتَ عَنْهُ تَلَهَّىٰ ⑩ كَلَّآ إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ﴾(1).

يقف بنا الدرس ليفيدنا بأن التوجيه الإلهي قد واكب الدعوة منذ طفولتها، إعداداً وتنفيذاً وانطلاقاً، وبأن ضغوط الواقع التي لا تعترف إلا باعتبارات النسب والجاه والمال والقوة ذات العنجهية والكبر قد أسقطت حيث لم يبق لها وزن حين تتعرى من لباس الإيمان والتقوى.

ويقف بنا أيضاً عند نقطة لتمتد منها خيوط مضيئة كشعاع الفجر لتغمر الساحة البشرية على امتدادها سعة وعمقاً، فتحدّد المقاييس وتضع المعايير والموازين لمنازل البشر وتصوراتهم وعلاقاتهم.

وإذا كان الرسول قد اختير، فليس معنى هذا ألا يوجّه وألا يرشد وإنما هو أولى وأجدر؛ ليكون للمنهج مطبّقاً وليكون قدوة لمن ارتضاه رسولاً.

فهو قد أعلن على الملأ بأنه عُوتب وبأنه وُجِّه التوجيه الذي ينشد منه ألا يخشى أحداً سوى الله، وألا يؤثر الوقوف في منتصف الطريق ولكنه يدفعه برفق ليظل في جو المدرسة الإلهية يسير وفق التوجيهات التي لا تفتأ تضع أمامه المؤشرات والإشارات الدالّة على أن بالطريق منعرجات ومخاطر، فالحذر واجب والاحتياط مطلوب.

ويتلو الرسول صاحب الخلق العظيم: ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ﴾ وهو يعلم أنه المعني بذلك، وإن لم ير تقطيب وجهه وتجهمه ولكنه يحسّه ضيقاً يملك عليه أقطار نفسه، فتبدو آثار هذه الانفعالات في صورة تقبض واشمئزاز على صفحة وجهه الكريم، حتى كأنه يراها رُؤىٰ العين على صفحة مرآة إذ يقرأ:

(1) سورة عبس، الآيات: 1-11.

﴿عَبَسَ...﴾ فالكلمة موحية باستحضار الصورة بحركتها ولونها وظلّها، إنها تكوّن مشهداً حاشداً بالحركات التي تسلمك إلى إشارة التوقف؛ لتثير في نفسك انتباهاً إلى السؤال: لماذا الإعراض؟

لأن ذلك الفقير الأعمى اقتحم عليه قاعة الدرس فقطع عليه سلسلة حديثه مع الكبراء والسادة أولئك الذين طبع الله على قلوبهم.

ويساق التوجيه يحمل أشد العتاب، ولكنّه يسجل بأسلوب الغيبة تأنيساً ورحمة وتخفيفاً لوقعه؛ لأن النفس البشرية إذا بدر منها ما يتوجب اللوم أحست بالألم الذي يتضاعف في حالة العتاب والتأنيب وربما يفضي إلى النفور، ويُغري بالمُنهىٰ عنه، ويورث الجرأة على الهجوم بالخلاف، ويهيّج الحرص على الإصرار وحاشى أن تكون نفسية الرسول ممن يجوز عليها ذلك.

فمن غيره يقوى على أن يَقذف بهذا الأمر في وجوه أولئك العتاة من كبراء قريش.

ولذلك اقتضت حكمة التوجيه الإلهي ـ لتضع القاعدة الأساسية للتربية ـ أن تسلك هذا المسلك المتدرّج تخفيفاً في بداية الشوط، حتى إذا آنست النفس وهدأت يتحول الأسلوب إلى الخطاب المباشر:

﴿وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُۥ يَزَّكَّىٰٓ ۝ أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ ٱلذِّكْرَىٰٓ﴾[1]. والحصة لم تنته بعدُ فما مضى منها قد خصص لوصف الحالة النفسية التي ارتسمت آثارها رسماً دقيقاً يهيىء المتلقّي إلىٰ التطلع والاستشراف؛ ليدخل به التوجيه بعد ذلك مباشرة في حيّز الدائرة التي تقوده إلى تقصّي الحقيقة عن سبب الإعراض استكمالاً لاستيفاء المعلومة التي توقظ النفس وتنبهها إلى دعامتين ثقيلتين في ميزان الله:

الأولى: إن الله وحده هو العالم بأسرار النفس ومكنوناتها وما ستؤول إليه من طهر ونفع يثمره الهدى والإيمان.

---

(1) سورة عبس، الآيتان: 2، 3.

والثانية: إن الحكم على الناس لا يستند إلى المظاهر؛ لأن بريقها خدّاع ولمعانها سراب مضلّل.

أما المخبر؛ فلا يحيط بعلمه إلا الله عز وجل. وإن «علم النفس» يأتي فيضع يدنا على حقيقة هي: «إن الانسان مهما آنس في نفسه من قدرة وحدّة في الذكاء لا يجوز له أن ينخدع بالمظاهر إذ أن كثيراً من المظاهر الكاذبة تؤدّي إلى إساءة الحكم على الناس وتقدير حقيقة مكانتهم».

وتستمر اللقطة خافقة بالحياة لترسل وميضها الكاشف لسبب التصدّي؛ والذي يلحظ أن التعبير بكلمة «تصدي» يوحي بشدة التلهّف كما يتلهّف العطشان إلى الماء.

إذ أن من معاني مادة «ص د ى» شدّة العطش؛ ولا جرم، فإن النبي صلوات الله عليه كان يتحرّق شوقاً إلى رؤية أولئك القساة وهم يتصدرون قائمة المسلمين وتحت مظلة الدعوة حيث يكونون للإسلام قوة. ولكنهم عن حديثه معرضون وفي آذانهم وقر وعلى أبصارهم غشاوة.

وترتفع لهجة العتاب لتضاعف من إشارات التنبيه بأن هؤلاء ليسوا أهلاً للطهر والنفع والتزكية. ﴿وَمَا عَلَيْكَ ...﴾ فهم أهل ضلال وجحود.

فوقت الدرس أثمن من أن يضيع في علاج المأيوس من شفائه، فلا تأبه بهم؛ لأن ضلالهم لا يضيرك. ثم يعطف التوجيه الإلهي على من جاء يسعى والخشية تغمر قلبه ليحقّق غاية ويصيب هدفاً، وقد كان في مسعاه يحمل في نفسه انفعالات متعددة. لقد أمَّ مجلس الرسول لتشرق نفسه بنور الإيمان، ويمتلىء قلبه بفيض من ألوان الحكمة والمعرفة التي سارع إليها متلهفاً ليصبح طالباً في المدرسة الإلهية. فيتلقّى الدرس من معينه سائغاً هانئاً.

ويمتد خيط العتاب مشتدًّا في نبرته ليبلغّ مرحلة التقويم النهائي لخاتمة الدرس.

﴿كَلَّآ إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ...﴾

ردع وزجر. إنها المرة الوحيدة في القرآن كله يقال للرسول الحبيب القريب: ﴿كَلَّا إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ..﴾؛ لأن الأمر يتعلّق بقضية أعمق من أن تعالج بمثل ما عولجت به.

إنها قضية موازين ومعايير اجتماعية توضع لترسخ مفاهيم العزّة.

﴿وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾(1)

فالإيمان والعزّة صنوان لا ينفصم أحدهما عن الآخر، فإن هانت عزّة المؤمنين وَهَىٰ إيمانهم، وفي ضعفه انقطاع للصلة التي تربطهم بعزّة الله، عندئذ يكونون عبيداً لغير الله حيث تنحني هامة أمتهم؛ لأن مجدها في عزّتها، وعزّتها في إيمانها، وبناء الإيمان الكامل لا يقبل التجزئة إنما يشمخ بلبناته ويقوىٰ بتماسكها، تمتدّ مثله وقيمه عبر الزمان والمكان لتقر الحقيقة المطلقة والمبادىء التي يشع نورها فينفذ من خلال التطبيق العملي الذي تتم بلورته انطلاقاً من دائرة حادث قد يكون فرديًّا، ولكنه يصعد في محيطه إلى أن يستقر في المجتمع الإسلامي منهجاً للحياة الفاضلة الكريمة، ونبراساً يحمله من كان للدرس واعياً، ومن تبوّأ بوعيه أرقى منزلة وأرفع مكانة.

إنه الفقير الأعمى «عبدالله بن أم مكتوم» الذي تلهّى الرسول عنه مرة وللقائه ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰ..﴾ ويمضي ما حدث وبين طيّات الذي مضى يذوب العبوس والتلهّي. ويبقى أثر التوجيه الإلهي إشراقاً في النفس ونوراً في القلب. فيسرع الرسول للقائه هاشًا باشًا مرحّباً قائلاً: «أهلاً بمن عاتبني فيه ربي» ويواظب من امتلأ قلبه بخشية الله على حضور الدرس ليصبح بعد ذلك إماماً يؤم المسلمين في مدينة رسول الله الذي يرى أهليته لهذا الأمر الجليل فيستخلفه مرتين على المدينة.

﴿وَأَمَّا مَن جَاءَكَ يَسْعَىٰ ۝ وَهُوَ يَخْشَىٰ﴾(2)

---

(1) سورة المنافقون، الآية: 8.

(2) سورة عبس، الآيتان: 8، 9.

التوجيه في مجال الدفاع عن العقيدة:

ويتابع التوجيه الإلهي خطواته عبر الطريق الذي اختطّه للدعوة ليسير على أديمها الداعي الواثق المتّئد، الذي يدرك جيداً أين يضع قدميه، فيأخذ بيده ويدلّه الدلالة الهادية التي تحذّره مما في الطريق من مزالق وعقبات، ثم يكشف له عن خائنة الأعين وخبايا القلوب، ولم يتركه يتعامل تعاملاً يركن فيه لأولئك الذين يخادعون الله وما يخادعون إلا أنفسهم وما يشعرون.

إنه يتدخل في اللحظة المناسبة؛ ليصوب ويفضح وينبه إلى مواقع الخطأ.

ورغم ذلك، فإن مثل هذه الحوادث ما تنفك تتكرر بأسلوبها المتشابه في المحيط البشري؛ لأن الحكمة الإلهية اقتضت ولم تزل أن يكون الدرس المستفاد يظل يرسل قبساته المعرفية وومضاته التربوية على مدى الأزمان وتعاقب الأجيال، وأن المدد الذي ينبعث من معجزة القرآن لا ينقطع ولا يفتر؛ فهو في مدّه قوىٰ وفي صراعه مع قويّ الشر ظافر غالب، وفي مختلف مجالات الحياة يزيل الأقنعة عن النفس البشرية ويعرّيها لتقف بغبشها الذي تنتزعه من سخائم المخادعة. ويزيح الستار الذي تنسجه الألسنة الرطاب في ملمسها؛ فهي دائماً تتوارى خلف ركام الزيف والنفاق؛ لتروغ إلى مسارب ملتوية، ودروب متعرّجة تمويهاً وتضليلاً.

وإن يك ما يُدارَى ينطلي بعض الوقت على الأنفس الزكية؛ فإنه لا يخفى على التوجيه الإلهي الذي يسبر الطبيعة البشرية فيضعها في مواجهة التحديات المتنوعة وفق الحاجات النفسية ليرى مدى تحصيلها المعرفي المستفاد من الدرس، استقراءً واستنتاجاً.

﴿انفِرُواْ خِفَافاً وَثِقَالاً وَجَاهِدُواْ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ۝ لَوْ كَانَ عَرَضاً قَرِيباً وَسَفَراً قَاصِداً لَّاتَّبَعُوكَ وَلَٰكِن بَعُدَتْ عَلَيْهِمُ الشُّقَّةُ وَسَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَوِ اسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ

﴿يُهْلِكُونَ أَنفُسَهُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ۝ عَفَا اللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَتَعْلَمَ الْكَاذِبِينَ ؟﴾[1].

1 - لقد ورد التوجيه هذه المرة في مجال الدفاع وردّ الاعتداء، ورسم الخطة المتكاملة التي تؤطّر تفاصيل الإعلان عن التعبئة العامة والنفير الشامل استقصاء لكل الحالات؛ لأن الأمر جامع يهم كل فرد من أفراد الأمة، حيث لا سلامة لكيانها إذا كان للعذر مكان وللحيلة التي يبديها في نفسه خور مستقر.

2 - إن الأمر صدر محدّداً عنصري الجهاد وهما: المال، والنفس. وقد قدّم المال لأنه عصب الحياة، حرباً وسلماً.

فالقوة المادية بمختلف أنواعها وألوانها وفق تطوّرها الصاعد، هي التي تفتح باب التضحية للنفس، وهي التي تهيىء الحياة الحرّة الكريمة السعيدة.

إذن، فمبدأ الدفاع عن العقيدة ينطلق من إعداد العدة. العدة بكل شمولها واتّساعها بداية بالصراع مع النفس؛ لأن وسائل المقاومة التي يستخدمها الإنسان لمكافحة عوامل الشر الداخلية سلاح يحتاج إلى تطوير لمجابهة التيارات المتجدّدة بأساليبها في عالم المخترعات العصرية ذات الجواذب المتناقضة.

والإنسان في صراعه مع نفسه كالأمّة في كفاحها ضد التسلّط بنوعيه: الداخلي والخارجي.

وإذا كان خطر العدوان الخارجي يبدو واضحاً في حجمه ونوع أسلوبه، فإن ما في الداخل من خطر أشد ضراوة وأعنف شراسة؛ لأن بقدرته على التمويه والتزلّف يختفي تحت ستار كثيف يصنعه بزيفه البارع ليندس بين الصفوف متودّداً ليكسب الثقة التي تمكّنه من تسديد ضربته وتحقيق مآربه.

(1) سورة التوبة، الآيات: 41-43.

لذا نجد المنهج القرآني يركز على اتخاذ الحذر كناقوس يُدق باستمرار لينبّه إلى الاستعداد والتهيئة والحيطة التي تجعل الأمة حريصة على ألا تترك بين صفوفها ثغرة ولا في بنائها منفذاً.

3 - ذلك - لو علمتم - خير لكم فإن في الجهاد عزتكم وفي النضال كرامتكم وفي التماسك حريتكم. ولكن البعض يبقى في شروده غافلاً عن محتويات الدرس بأبعاده، فينجذب بطبيعته ذات الطابع الأرضي نحو العرض القريب، عرض الدنيا الكسب المادي إذا رأوا تجارة انقضّوا إليها مسرعين. نماذج تتكرّر لاهثة ساعية متخاذلة محجمة. أما إذا أحسّوا بأن لا ربح ولا كسب ولكن العسر والمشقّة؛ فإنهم عندئذ يركنون إلى الحيلة والايمان الكاذبة والاعذار الخادعة بطلائها البرّاق وثوبها المنمّق بصور النفاق، التي لا تقف عند حدّ الزمان والمكان، تتفق في جوهرها وتتشابه في أرديتها وفق حجم وطول من يرتديها عبر العصور.

4 - ثم يصدر التوجيه رفيقاً كنسمة السحر وكأن يداً حانية تربّت على كتف المُوَجَّه لتُشعره بالعفو والعطف حتى يلتفت ليرى أنه هو وحده المقصود بهذه المقدمة اللطيفة في مثل ذلكم الموقف الذي يتّسم بالشدة والعنف. فالأمر يتعلّق بالدعوة إلى التعبئة العامة للدفاع عن مصير الأمة. فلا تخاذل إذن، والأعذار مرفوضة. والتحري مطلوب؛ لأن الدرس لم يزل في دقائقه الأولى وفي فصله التمهيدي؛ فالهدف العام لم تبد ملامحه بعدُ. ومعالم الطريق لم تَلُحْ في الأفق إلا لمن كان ذا نظر بعيد، ولكن التوجيه توجيه إلهي، فلو لم يكن كذلك لانقلبت الموازين. ربما إلى شيء آخر، ﴿عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ وَتَعْلَمَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴾[1].

فالقضية حينما تطرح للنقاش والبحث في أثناء الدرس تستقطب كل الآراء

(1) سورة التوبة، الآية: 43.

التي يُدلي بها من يهمه أمر الوصول إلى الحقيقة. وقد يتّفق أن تلتقي أغلبية الآراء حول نقطة واحدة؛ لتتحوّل إلى قرار يُتخذ من الجميع ويكتسب قوته من فاعلية الجماعة ليصير ذا مفعول في محيط المجتمع كضابط يرتضيه كل الأفراد ولو لم يكن مدعوماً في مبدأ الشورى من جميع الآراء.

ومن خصائص المنهج القرآني أيضاً، ألا يدع الأمر يمضي دون أن ينبّه إلى أن ترك الأولى لا أثر له من حيث التعديل الخاص بمحتويات القرار، وأن بذل الجهد واستفراغ الطاقة يُسقطان العقاب حيث يبقى اللوم والعتاب.

﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ تُرِيدُونَ عَرَضَ ٱلدُّنْيَا وَٱللَّهُ يُرِيدُ ٱلْـَٔاخِرَةَ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٦٧﴾ لَّوْلَا كِتَـٰبٌ مِّنَ ٱللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَآ أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٦٨﴾ فَكُلُوا۟ مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَـٰلًا طَيِّبًا ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٦٩﴾ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ قُل لِّمَن فِىٓ أَيْدِيكُم مِّنَ ٱلْأَسْرَىٰٓ إِن يَعْلَمِ ٱللَّهُ فِى قُلُوبِكُمْ خَيْرًا يُؤْتِكُمْ خَيْرًا مِّمَّآ أُخِذَ مِنكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٧٠﴾ وَإِن يُرِيدُوا۟ خِيَانَتَكَ فَقَدْ خَانُوا۟ ٱللَّهَ مِن قَبْلُ فَأَمْكَنَ مِنْهُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾[1].

1 ـ يعالج الدرس قضية أسرى الحرب في أول لقاء للمسلمين بقوى الشر والطغيان.

فيقف صاحب الدعوة ومعه المسلمون عقب انتصارهم في مواجهة القضية التي لم يسبق أن مرّوا بتجربتها ولم يكن القرآن أن تناولها بالتوضيح والشرح بعدُ.

لذا بقيت المسألة موضع شُورى ورأي، وتبودلت الآراء ليتولّد عن تبلورها القرار الذي نفذ ـ فيما بعد ـ بافتداء الأسرى.

(1) سورة الأنفال، الآيات: 68-72.

ولكن القرار قد استند في مسوّغه إلى عرض الدنيا الذي لا يرقى إلى مستوى الآخرة في موقف المقابلة التي روعيت هنا:

﴿تُرِيدُونَ عَرَضَ ٱلدُّنْيَا وَٱللَّهُ يُرِيدُ ٱلْآخِرَةَ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾(1)

فلا ينبغي إذن للمسلمين ألا يريدوا إلا ما يريده الله. وقد وصف الله نفسه في تذييل الآية بأنه عزيز والعّزة: قوة. فهو يدعوكم إلى إبداء قوتكم لتكونوا أولياءه عن جدارة، ولا سيما وأنتم في خطوتكم الأولى في موقف المواجهة مع أعدائكم.

ومن الحكمة الراقية في التدبير والرأي الأكمل ألا يكون للنبي أسرى حتى يثخن في الأرض. والإثخان إنما يعني: التقتيل وعدم المهادنة.

2 ـ لذلك كان التوجيه الإلهي موضحاً الهدف الأسمىٰ، وهو كسر شوكة المشركين وذلك بإعمال السيف في رقاب المقاتلين وأخذهم بالشدة حتى يروا هيبة المسلمين وعظمة قوتهم التي تبث في نفوسهم الفزع والخوف كي لا يجرؤوا على معاودة الكَرّة. ولا ريب أن هذا الهدف أكبر من أن تعدله حفنة من مال يأخذها المسلمون فدية من أسير يطلقونه ربما يعود فيحمل سيفه في صفوف الأعداء مقاتلاً.

3 ـ إن أصحاب التضحية الذين رفعوا أرواحهم على أكفهم يوم التقى الجمعان قد استحقوا العفو من الله وفازوا بالتجاوز عما بدر منهم، فكوفئوا بأن أحلت لهم الغنائم التي يظفرون بها في حروبهم مع أعدائهم كجائزة اختصّوا بها دون غيرهم من الأمم. وقد كان من ضمن ذلك الفدية التي أخذت نظير إطلاق سراح أسراهم.

وإن الدرس ليسير حثيثاً في اتّجاه التذكير بالتزام تقوى الله كي لا يخالط نفوس القوم شيء من الغرور، فيظنوا أنِ في سعة رحمة الله ومغفرته ما يُرخي لهم العنان الذي يجعلهم يضنون ببذل ما يجدر بهم أن يبذلوه من جهد تأميناً وضماناً لمسيرة الدعوة.

---

(1) سورة الأنفال، الآية: 68.

﴿فَكُلُوا مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَالًا طَيِّبًا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾(1)

4 - وبعد الفراغ من التوجيه الذي تخللت قبساته عدة أحكام حيث تم تقريرها بطرق تربوية روعي في عرضها الجوانب النفسية - تحول الخطاب إلى المعلم ليتولى القيام بمهمته التبليغية في خط المنهج القرآني. فعن طريقه ينبعث النور الإلهي ممتدًا ليصل إلى قلوب أولئك الأسرى فاتحاً لهم باب الرجاء والأمل الرحيم المشرق لينقدح في أذهانهم.

عامل تغيير عنصر الاعتقاد تغييراً جوهرياً ومما يراه «علم النفس» أن هذا التغيير يؤدّي بالضرورة - إلى تغيير عنصر الوجدان.

﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُل لِّمَن فِي أَيْدِيكُم مِّنَ الْأَسْرَىٰ إِن يَعْلَمِ اللَّهُ فِي قُلُوبِكُمْ خَيْرًا يُؤْتِكُمْ خَيْرًا مِّمَّا أُخِذَ مِنكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾(2).

وإلى جانب هذا يحذركم من العودة إلى الدس والخداع والمكر وسلوك الطريق التي سلكوها من قبل، فإن فعلوا ذلك فالله لهم بالمرصاد. فلن يفلتوا من عقابه فلا مهرب لهم من قبضته ولا نجاه فأين المفر؟

فالله بالسر عليم وبتدبير الأمور وتصريفها حكيم.

وفي مقام التهيئة النفسية نجد التوجيه الإلهي يداجي النفس المؤمنة، فيزرع فيها بذور الثقة والاطمئنان ويعدها بأن النصر آت لا ريب فيه، ولكنه في الوقت نفسه يحضّها على الإقدام، ويحثّها على مواجهة العدو بروح معنوية عالية.

الرؤيا المنامية

عن طريقها يتم التخطيط النفسي للمعركة، وذلك بتوضيح المفاهيم العسكرية من حيث تحديد الإمكانات العددية ذات الفعالية القتالية انخفاضاً وارتفاعاً.

(1) سورة الأنفال، الآية: 70.
(2) سورة الأنفال، الآية: 71.

إذ يرى النبـي صلوات الله عليه مناماً قلة عدد الأعداء مع أنهم كثيرو العدد مظهراً أما مخبر؛ فهم ألف كأف فلا وزن لهم فـي ميزان القوى الـحربـية؛ لأن قلوبهم من الإيـمان خواء، ولـيس لهم من زاد العقـيدة ما يغذّي نفوسهم، فلا ربـاط يشدّهم، ولا دافع يدفعهم إلـى بلوغ الهدف الذي يوصلهم إلـى حياة أسعد إن هم قتلوا فـي ساحة الـمعركة.

﴿إِذْ يُرِيكَهُمُ اللَّهُ فِي مَنَامِكَ قَلِيلًا وَلَوْ أَرَاكَهُمْ كَثِيرًا لَفَشِلْتُمْ وَلَتَنَازَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ سَلَّمَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ۝ وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ الْتَقَيْتُمْ فِي أَعْيُنِكُمْ قَلِيلًا وَيُقَلِّلُكُمْ فِي أَعْيُنِهِمْ لِيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ﴾(1).

1 - إن تـحضير الدرس بفصوله يتـم فـي جوّه التـمهيدي لـيضع الـمقدمات التـي تسلـم إلـى النتائج الواضحة الصادقة فـي دلالتها الـحقـيقـية. ولـم تكن الرؤيا فـي تصويرها للـموقـف قد اختفت وراء رمز من الرموز التـي تقـف مـحتاجة إلـى فك أو تـحليـل، وإنـما عرضت فـي إشراقة لـمساتها موائمة للـموقـف الذي يقتضي سرعة إبراز ما يحول بـين النفس وتردّدها، ويقطع كل الاحتـمالات التـي قد تطامن من شدة الـحماس وتبطىء من سورة الإقدام.

2 - إن الـمنهج القرآنـي يحيط بـالنفس البشرية فيكشف عن طبيعتها فـي حالة ضعفها، حيث لا تـجد من يربّـي فـيها صدق العزيـمة وقوة الإرادة، وشدة البأس، لذا نراه يوضح الأسبـاب التـي دعت إلـى تقليـل شأن العدو وضآلة عدده ولو أجمل الأمر أو انعكست الرؤيا لدب الـخلاف بـين صفوف الـمسلـمين ولأصيبت جبهتهم بـالوهن والفشل ولتبـاينت آراؤهم.

فمنهم من يرى القتال، ومنهم من يتردد، وربما منهم من يتقاعس: ﴿وَلَٰكِنَّ اللَّهَ سَلَّمَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾(2) وعند اللقاء، والتحام الصفوف،

---

(1) سورة الأنفـال، الآيتان 44، 45.

(2) سورة الأنفـال، الآية: 44.

واشتباك السيوف تتكرّر الرؤيا هذه المرة من الطرفين. يرى المسلمون أعداءهم قلة. أما الأعداء فإنهم كذلك. يرون المسلمين قلة في عددهم ولكنهم كثر عند اللقاء، صبر في ساحة النزال، أشداء على الكفار، رحماء بينهم ﴿لِيَقْضِيَ ٱللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ﴾[1]

وهكذا ينتهي الدرس بتخطيطه وتنفيذه وتربيته لنفوس المؤمنين وهم مقدمون على خوض المعركة التي تقرّر مصير الدعوة وترسخ أركانها وتؤصل شجرتها لتسمق وتطاول بفروعها السماء.

المعركة التي ترسم الخطوط الواضحة لفريضة الجهاد والجهاد باق ما بقي الصراع بين الحق والباطل؛ لأنه ابتلاء وتمحيص ومحق لدولة الكفر وفرز للمؤمنين الذين يظفرون بأرفع العلامات في الامتحان النهائي، فالنصر من عند الله حقيقة لا مراء فيها ولكنه لم يمنحه هبة بل بثمن، والثمن باهظ، إنه الدم والعرق والكفاح والنضال والصبر والثبات.

﴿لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ﴾[2] أبَعْدَ هذا من جلاء ووضوح؟ ويقف التوجيه الإلهي ليقرّر أثمن جائزة تمنح للذين فازوا في الامتحان العسير في ساعة العسرة، تلك الساعة التي كادت تزيغ من شدتها قلوب، وتضطرب لقسوتها نفوس؛ لذا اختير أن يكون وقتها عصيباً ليجد المسلمون أنفسهم أمام مسؤولياتهم الجسام، وليعلموا أن المسؤولية ليست كلمة تردّدها الألسنة وتحبرها الأقلام، ولكنّها أمانة حملها ثقيل وطريقها شاق مرهق.

إنها مواقف وتضحيات وجهود ومعاناة، فالذي ينهض بعبئها ويؤدّيها بنفس راضية إنما يستحق العفو والقبول والأجر

(2) سورة الأنفال، الآية: 45.

(2) سورة الأنفال، الآية: 43.

﴿لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِيِّ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ ٱلْعُسْرَةِ مِنۢ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُۥ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ۝ وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُوا۟ حَتَّىٰٓ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وَظَنُّوٓا۟ أَن لَّا مَلْجَأَ مِنَ ٱللَّهِ إِلَّآ إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ۝ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَكُونُوا۟ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾[1].

1 - إن الدرس في البداية يعد الكشف الذي يتضمّن فئات المجازين وقد صدر باسم النبي صلوات الله عليه؛ ليكون للترتيب وقعه الطيب في نفوس المسلمين، وأن الكشف قد ضمهم، ليزيد من علو شأنهم، ورفعة منزلتهم، ويجعلهم يثقون بأنفسهم في مستقبل كفاحهم لنصرة الحق.

2 - إن عسر الساعة وشدّتها قد منحا الفرصة للذين لبوا دعوة الجهاد للتعرّف على من تثاقل في بداية الأمر حتى إذا أحسّ بالحرج لحق بالركب مسرعاً.

3 - إن الدرس ليضع يدنا على حقيقة تفاوت الناس في مواقفهم إزاء تقبّلهم لداعي الجهاد؛ فمنهم المتردّد، ومنهم الرافض المخذل. ومنهم الملبي الجريء المقدام. ومن الناس من يحجم ولكنه سريع الأوبة والقبول.

4 - لقد تكفّل المنهج القرآني بوضع كل فريق من هؤلاء في مكانه الذي يحدّد هويته في تركيبة المجتمع الإسلامي لتتم عملية التمحيص والكشف والتميز، وبذلك ترتسم الملامح الأساسية على صفحة التخطيط الدفاعي في مجال الإعداد النفسي للمعركة.

5 - إن الإعداد ليبدأ بإيقاظ الرغبة الذاتية حيث يتدرج في تنميتها مع سلم الانتماء إلى الأمة حتى تتعاظم لتصبح قوة صامدة تدرأ الخطر الذي يتهدّدها وتذود عن حياض عقيدتها.

(1) سورة التوبة، الآيات: 118-120.

6 - إن التبعية قد تـمّت فـي ظروف قاسية ومعاناة نفسية مؤلـمة، كما أفـادت بـمدلولها اللغوي دقّة معنى الامتثال للقـيادة الرشيدة السائرة نـحو الهدف وهم خـلفها ماضون يحثّون السير فـي مشهد حي بحركته ذات الصبر والـجلد والـمنعة والإبـاء.

﴿ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ ٱلْعُسْرَةِ..﴾

7 - إن الدرس يـمضي لـيسجل لنا حادثة الثلاثة الذين تـخـلّفوا عن ركب الـجهاد فقعدوا يؤثرون وارف الظل الـمنعش وبـارد الـماء الـمنشط، إنهم استـمرأوا الـجلسة بـين الأبناء يسْمرون حيث يـلذّ لهم طيب القعدة وهم يتبـادلون الـحكايا مع صِبـيتهم الصغار، وكأنهم عن شأن الـمسلـمين غافلون. فلا يهتـمون بـمن يقاسي حرقة العطش ولسعة الـجوع، يرون القافلة تسير يـلفحها قـيظ الهجير. أما هم، فقد تقوقعوا فـي دائرة أنانـيتهم.

ولكنهم فجأة وجدوا أنفسهم فـي منأى العزلة الذي جعلهم كالشيء ملقـى فـي ركن منزو يطبق علـيه الظلام وتلتهمه الوحشة.

فلا الأرض برحابتها يرونها أرضاً، ولا السماء تبدو بجمالها سماء.

فكأن الأرض لـملـمت أطرافها وضمتهم بقبضتها الصخرية. وكأن أنفسهم أوعية قد ضاقت فـاشتد ضغطها حتـى انسحق ما بداخـلها فلـم يبق من عصارة الـحياة شيء.

فأي ألـم أقسى؟ وأي جرح أعمق من أرض ونفس يضيقان معاً؟

فلـيس فـي لغة العصر وأسلوبه ما يشبه هذا التذنـيب الـممض.

إنه الـحصار النفسي الذي لا مفر منه ولا منفذ.

فلله الأرض ولله النفس، فلا ملـجأ منه إلا إلـيه، وهكذا تؤوب النفس عندما تقـف بها نقطة النهاية فتسلّـم وجهها لله لعلّها ترى فـي ساحته بصيصاً من أمل وبـارقة من رجاء، ترنو فتلتـمس العون، ولكن مـمن؟

لا أحدى سوى الله. ولـم يجد أولئك الثلاثة إلا الصدق حيث لا منقذ غيره،

ولـيس من سبـيـل عدا الاعتراف بأن لا عذر لهم يبدو. فلـم يكونوا كالذين يقولون بألسنتهم ما لـيس فـي قلوبهم.

ولـم تندرج أسماؤهم فـي قائمة الذين يدّعون ـ وهماً ـ بأنهم شُغلوا عن الـجهاد بـالـمال والأهل.

ولا مـمن يتـخذون من بعد الشقة مسوّغاً، وإنـما هي الهفوة والزلة. وقد يضاعف الـموقـف ـ لشدة خطورته ـ نوع العقوبة.

فقد امتدّت بـالثلاثة مدة التذنـيب والتعذيب، فقاسوا خلالها ألواناً مرة من الشعور الـموجع وضغط الضمير الـمؤلـم والنبذ الاجتـماعي الذي ينشب أظافره فـي أعماق النفس الـجريح لـيضاعف من حزنها وألـمها وندمها.

ولعل من أهم الوسائل التربوية وسيـلة النبذ الاجتـماعي، فهي ذات وقع شديد علـى النفس، وأثر عميق فـي تغيـير الاتـجاه.

وهي علاج إيجابـي لتطهير النفس وتنقـيتها من شوائب الأثرة والأنانـية لـيدفع بها إلـى حب الإيثار والتضحية فـي سبيـل العقيـدة.

ولـينقلها بعد مرورها بـمراحل التـجربة الـمرة. من ضيق الأرض والنفس إلـى ساحة التوبة وسعة الرحمة التـي تـحتضن تـحت مظلّتها كل شيء ولكن لا يتفـيّأ ظلالها إلا من آمن وصدق واتقـى.

وعقوبة العزل عن الـجماعة إنـما تعنـي حرمان الـمعزول من إشبـاع حاجاته النفسية:

كحرمانه من الـحب الذي يتبـادله مع الآخرين من أفراد الـمـجتـمع. وفـي مثل هذا الـحب عنصر الـمؤانسة الذي إن فقد حلت الوحشة والفزع، وكذلك حرمانه من التـمتّع بحقوقه والقـيام بواجبه، عندئذ يحسّ بـالإحبـاط الـمؤلـم الذي يقوده إلـى دائرة الـيأس، وفقدان الثقة بنفسه والاستسلام إلـى الاحساس الـمتنامي داخـل نفسه بأن دوره فـي الـحياة قد انتهى، وأن قـيـمته كعضو فـاعل قد تضاءلت.

ومن العبء الثقيل الذي لا يطاق أن يَرى ممن حوله يصنعون الحياة ويسهمون في وضع لبنات التجديد في بناء الحضارة والتقدم، إن هذا لمن القهر النفسي أن يشاهد المرء الحركة وهو جامد لا يُبدي حراكاً. وهكذا خُلِّف الثلاثة؛ تركوا فأهملوا بعد أن لاذوا بالصدق؛ لأن في الصدق النجاة واحتموا بالصراحة؛ لأن في الصراحة إظهاراً لنور الحقيقة، والحقيقة هي الزورق الذي يمخر عباب اليأس إلى شاطىء السلام، ويمرق من لجة الحيرة إلى قمة الأمان.

إن وميض الإيمان قد انتشل أولئك الثلاثة؛ ليكونوا قدوة يَقتدي بها المؤمنون، وأسوة يأنس بصحبتها المتقون، ومنارة يهتدي بنورها السائرون، لقد منّ الله عليهم فكرموا؛ لأنهم صدقوا.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَكُونُوا۟ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾[1].

فالصدق ـ إذن ـ يكون مع النفس أولاً؛ ليصبح نقطة البداية في حياة الفرد حيث ينطلق من هذه النقطة شعاعه ليعم ساحة المجتمع قاطبة. والصراحة والصدق هما الركيزة الأساسية التي تقوم على قاعدتها حياة المجتمع المنتجة الخصبة؛ لأن الصراحة تنبعث من ثنايا الشجاعة في إبداء الرأي والنصح. والصدق، إنما يعتمد عليها في التعبير عن الحق والواقع والاعتراف بملابسات المسلك الذي تسلكه النفس في حالة ضعفها. غير أن درجة الصراحة والصدق لن يبلغها إلا من يمرّ بامتحان دقيق وعسير في إرادته وإيمانه بالله. ثم بنفسه وبالقيم؛ لأن الانتصار على التردد والتأرجح بين دافع الإعلان والكتمان ليس بالأمر السهل اليسير. فهذه المرحلة تمثّل مرحلة الكفاح الأولى لعملية البناء، أي بناء تقام دعائمه على أسس الخير والإصلاح.

والصراع في حيز النفس إنما يحتاج إلى عنصر الشجاعة ولا يعني هذا نفي

---

(1) سورة التوبة، الآية: 120.

الخوف؛ لأنه لو لم يوجد لما حدث صراع، ولكنّ النصر لا يتحقق إلا بامتلاك السيطرة والقدرة لتتم عملية ترجيح كفة الشجاعة.

ومن هنا، نجد أن من مميزات المنهج القرآني أن يمسَّ أعماق النفس مسًّا مباشراً في توجيهاته التربوية، حيث يضع الأسس التي تحرّك فيها عوامل الامتثال بالمقارنة، ولفت الانتباه إلى الإثابة السخيّة كحافز يحفز إلى مضاعفة بذل المزيد من الجهد، ويجنّبها في الوقت نفسه مزالق الخطأ ومساقط الانحراف.

﴿مَا كَانَ لِأَهْلِ الْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُم مِّنَ الْأَعْرَابِ أَن يَتَخَلَّفُوا عَن رَّسُولِ اللَّهِ وَلَا يَرْغَبُوا بِأَنفُسِهِمْ عَن نَّفْسِهِ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَطَئُونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ الْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَّيْلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُم بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ ۚ إِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴿١٢١﴾ وَلَا يُنفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً وَلَا يَقْطَعُونَ وَادِيًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾[1].

1 - الدرس هنا عَمَدَ إلى معالجة ظاهرة التخلّف عن الجهاد والهروب من أداء الواجب المقدّس؛ فقد وجّه إلى أهل المدينة ومن حولهم إنكاراً عامًّا؛ ليدفعهم إلى سرعة الاستجابة في حالة صدور الاستدعاء العام، وقد أيقظ في نفوسهم عامل إشباع الحاجة للانتماء الاجتماعي، والانجذاب نحو القيادة التي لا ترقى عن مستواهم في هذا المجال، فكيف إذن، يرغبون بأنفسهم عن نفسه فلا ينبغي أن يتركوه في الميدان منفرداً؟

لأن القضية تهم الجميع؛ فهي قضية دفاع وكفاح وبعد ذلك قضية بناء

(1) سورة التوبة، الآيتان: 121، 122.

والبناء لا تنهض دعائمه بيد واحدة بل بأيدٍ متعددة؛ فمن رام أن يستظل بسقفه فَلْيُسْهِمَ بيده في وضع لبناته.

2 - ومن ملامح الهوية الاجتماعية التي ركز الدرس على تقويتها تنبيه الأمة إلى الخطر المحدق بها، وإلى أنهم أهل المدينة.

كما أثار في الأفراد عاطفة الرغبة في الظفر بالثواب مقابل كل خطوة يخطونها.

فلألم الجوع ثمن، ولحرقة العطش جزاء حسن. وللتعب والمشقة جوائز قيمة.

فإذا جاعوا فليكن جوعهم في سبيل الله وإذا عطشوا ففي سبيل الله يكون عطشهم، وإذا تعبوا فلا يتعبون في غير ما يُرضي الله.

إذن فكل السبل قد أسقطت عدا سبيل الله فمن إليه وجهته فإنه سيظفر بالثمن الباهظ: العمل الصالح.

3 - وفي إبراز معالم الحركة في اتّحادها وتعاونها تجاه العدو لإغاظته والنيل منه، حضّ على المضي قُدُماً لتحقيق الغاية المنشودة والهدف المرجوّ.

4 - ولم يغفل الدرس دور الاقتصاد كعامل أساسي في تكثيف القوى الفاعلة في مجال الدفاع؛ لذلك كانت الإشارة في توجيهها مركّزة على النفقة مهما ضؤلت؛ فلم تضع لدنوها حدًّا؛ لأن القليل إذا تجمّع كثر، ولأن الإسهام ولو باليسير دعامة من الدعائم القوية التي تقام عليها جسور التعاون.

وبالتعاون يتمّ شعور أفراد الأمة بوحدة مصيرهم وقضيتهم، وإذا قوي هذا الشعور وتنامى تولّد عنه الاعتقاد بكونهم أمام عدو لا مفر لهم من مواجهته.

5 - إن الدرس يرسم أمام الأمة بأفرادها صورة حركتهم وهم سائرون لملاقات

العدو ترتفع بهم الوهاد والجبال وتستقبلهم بطون الأودية، حيث يسجل لهم بكل موضع قدم أجر مذخور عند الله الذي لا يغرب عنه مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء.

فالجزاء مغر، والربح وفير. وإن جذوة الحماس أمام هذا وذاك لتزداد اتّقاداً واندفاعاً ومن ثم تختفي الأعذار بين صفوف المؤمنين وتنعدم ظاهرة التخلّف عن داعي الجهاد التي لم يحدث قط أن قوبلت الدعوة في بدايتها بأخطر منها.

6 - والتعبير هنا «**لأهل المدينة**» مشعر بأن التخلّي عنها مزرٍ معيب، فكيف يتصوّر أن يترك الأهل دارهم التي آوتهم وأظلّتهم نهباً للغزاة إن هم قعدوا عن الدفاع حتى يداهمهم الأعداء في عقرها؟ كما يذكرهم إيصالاً لهم بخيط الوعد المتين الذي سبق أن قطعوه على أنفسهم في أيامهم الأولى التي شهدت ميلاد الدعوة الإسلامية عندما وقفوا صفًّا صامدين كالبنيان المرصوص يشدّ بعضه بعضاً. ولأنهم المحور الذي تلتفّ حوله بقية المحاور قد انسحب التوجيه على من جاورهم ليمتدّ مفعوله عبر بعديه: الزماني والمكاني، حتى لا تنفكّ المدينة عن سكانها؛ فهي بهم عامرة شامخة ما بقي لدعوة الحق هتاف ترتفع به حناجر المؤمنين.

ومن خلال الحركة الهادفة يُبرز المنهج القرآني المعلومة؛ ليقدمها في حجمها زاخرة بانتفاضة الحياة لكي لا يستوعبها ويدركها إلاّ من أوتوا القدرة على الحركة، ذوو الضمائر الحيّة؛ ليتم لهم التقاطها من بطون المواقف المفعمة بنبض التجربة ونبل المقصد وشرف الغاية.

فالحركة، إذن، هي المجرى الأساسي للتفقّه في الدين عبر درجات سلم الجهاد وهي .أيضاً الرافد الذي يغذّي ينبوع الدعوة بحركته الدائمة ومدّه المستمر. وللحركة اتجاه، ولكن المنهج القرآني قد حدّده حيث عمّق مساره حتى لا تنحرف أو تضلّ.

﴿وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنْفِرُوا كَافَّةً فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾(1).

1 - بعد أن عولجت ظاهرة التخلّف عن الجهاد. وقد كان لهذا العلاج أثره الطيب الذي جعل المؤمنين يقبلون في وفود زاحفة على المدينة تلبية لدعوة الجهاد، واستجابة لتوجيهات القرآن - سارع الدرس إلى إحكام الحلقة الثانية التي تضع للمجتمع القاعدة التنظيمية لتكتمل عملية التفقه عن طريق الممارسة والتدريب العملي، تناوباً وتبادلاً للمعلومة المستقاة في ميدانها الحركي.

2 - إن التوجيه الإلهي قد صدر في البداية لأهل المدينة ومن حولهم. أما في الموقف الثاني، فقد عمّ جميع المؤمنين حرصاً على اتّزان الهيكل التنظيمي للمجتمع وتنسيقاً لبث العلم، حتى لا يتخلّف أحد من أفراده دون أن ينال وافر حظه منه.

3 - إن تنظيم المجتمع إلى فرق وطوائف ليدلّنا بوضوح على أن هذا التقسيم هو أجدى طريقة للتّفقّه في الدين بالنفير.

فالطائفة التي ترى وتسمع وتتلقى فنون الحرب حية في ميدانها تكون قد تعلّمت؛ لأن القضايا المتجددة والأحداث المتغيّرة والظروف المتولّدة عن تلك المواقف المختلفة في ساحة القتال إنما هي ألوان للمعرفة.

وكذلك الآراء التي تثار حول الاحتمالات والملابسات والحلول الواردة لكل المشكلات عن طريق الوحي وهم بصحبة الرسول صلوات الله عليه، كل ذلك يُكوّن الأسس العلمية للتفقّه في الدين تتشرّبها نفوس تلك الطائفة لتظفر بالمؤهل العلمي الذي يؤهّلها لتصبح قادرة على القيام بمهمة التعليم، للذين

(1) سورة التوبة، الآية: 123.

اقتضت ظروف التنظيم أن يقوا ليتلقوا تعليمهم، ثم تتاح لهم فرصة مواصلة الجهاد تطبيقاً عملياً حذرين - في الاتجاهين معاً.

﴿ لِيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ ﴾[1].

فلنا أن نقف عند الإنذار والحذر لنتبين أن تخويف القوم من مغبة التفريط والتكاسل عن أداء الواجب تربية وعبادة.

وأن تنبيههم إلى أخذ الحيطة والحذر مما يحاك ضدهم في الداخل والخارج من مؤامرات، درس واجب استيعابه؛ فقد أقرّه المنهج القرآني منذ أن انطلق في هجرته يبحث عن الأرض المؤمنة؛ ليتخذ منها القاعدة الصلبة سعياً لتحقيق أهدافه وتأميناً لطريق الجهاد إلى بلوغها.

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا خُذُوا حِذْرَكُمْ فَانفِرُوا ثُبَاتٍ أَوِ انفِرُوا جَمِيعاً ۝ وَإِنَّ مِنكُمْ لَمَن لَّيُبَطِّئَنَّ فَإِنْ أَصَابَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَالَ قَدْ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيَّ إِذْ لَمْ أَكُن مَّعَهُمْ شَهِيداً ۝ وَلَئِنْ أَصَابَكُمْ فَضْلٌ مِّنَ اللَّهِ لَيَقُولَنَّ كَأَن لَّمْ تَكُن بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُ مَوَدَّةٌ يَا لَيْتَنِي كُنتُ مَعَهُمْ فَأَفُوزَ فَوْزاً عَظِيماً ﴾[2]

1 - افتتح الدرس بالنداء، وللنداء دلالته العامة على العناية الكاملة والاهتمام العظيم بالمنادى وبالمطلوب.

وفيه من التشويق والإثارة مايهزّ النفوس ويأسر الألباب. وذلك باشتماله على ما يوحي برفعة شأن المنادين وعلوّ منزلتهم، وسموّ مكانتهم.

2 - إنه نداء قد صدر من الله الخالق القادر المدبّر الرازق.

أليس جديراً بأن يصرف المنادين عن كل ما يقع بين أيديهم سوى ما يحويه الدرس الإلهي من توجيه؟ بلى، إنه لكذلك.

---

(1) سورة التوبة، الآية: 123.

(2) سورة النساء، الآيات: 70-72.

فالتوجيه قد وصفهم فألبسهم ثوب الإيمان؛ ليشعرهم بألا سبيل لهم غير الامتثال لما يؤمرون به من إعداد للدفاع عن نصاعة هذا الثوب ونقائه.

3 - ثم يكشف الدرس الغطاء عمن يتثاقلون، ويمعن في التصريح بأنهم - منكم - إنهم معكم داخل الصفوف مندسون. يسمعون منكم يتحدثون إليكم يرقبون خطواتكم، إذا أصبتم فرحوا، وإذا غنمتم تمنّوا أن لو كانوا من الظافرين.

وهكذا لم تتخلّف القاعدة جبلة في صنف من الناس راسخة لا يمكن أن تنسلخ عنهم ولا هم عنها بمنسلخين. وهؤلاء هم الذين يُسمون في لغة العصر: بمروّجي الحرب النفسية في الجبهة الداخلية، كبث الفرقة بين الصفوف، وتثبيط العزائم، والتقليل من شأن الاستعداد لزعزعة الثقة بالنفس، حتى تصبح الجبهة في حالة يأس وانفعال شديد يوهن حركتها ويشلّ فعاليتها القتالية.

وقد أطلق القرآن على هذا الصنف اسم «المعوقين»

ورسم لهم أشنع صورة: ﴿فَإِذَا جَآءَ ٱلْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَٱلَّذِى يُغْشَىٰ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْمَوْتِ﴾[1] أما في حالة ذهاب الخوف: فإن ألسنتهم سليطة شديدة الإيذاء والسوء.

وتارة يُوصفون بأنهم مرضى القلوب، فإذا ذكر القتال عادت إليهم تلك الحالة: نظرات خائفة مرعوبة مضطّربة ترتعش في أحداقها فزعة وجلة.

﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَتْ سُورَةٌ فَإِذَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ مُّحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا ٱلْقِتَالُ رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ ٱلْمَغْشِىِّ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْمَوْتِ فَأَوْلَىٰ لَهُمْ﴾[2].

---

(1) سورة الأحزاب، الآية: 19.

(2) سورة محمد، الآية: 21.

مواقـــف للتـــمـــحيص والابتلاء:

الإعداد لتأدية فريضة الجهاد لا يتم إلا عن طريق التربية العملية المتّصلة التي تكشف عن حقيقة النفس البشرية فتُسقط التي يتضح أنها لا تملك القدرة الإيمانية على المواجهة، وتحول بينها وبين خوض المعركة؛ لأنها لو لم تفرز لاعتبرت من ضمن القوة التي أعدت وليس من مقومات الإعداد أن يُضم الضعف الذي يقود إلى الهزيمة والفشل؛ فالقوة - إذن - تكمن في الاصطفاء ولن يتحقق ذلك إلا إذا تمت الغربلة من كل الشوائب العالقة بمصدرها لينطلق تيارها في مجراه نقيًّا صافياً:

﴿فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِالْجُنُودِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ مُبْتَلِيكُمْ بِنَهَرٍ فَمَنْ شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَمَنْ لَمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي إِلَّا مَنِ اغْتَرَفَ غُرْفَةً بِيَدِهِ فَشَرِبُوا مِنْهُ إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ فَلَمَّا جَاوَزَهُ هُوَ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ قَالُوا لَا طَاقَةَ لَنَا الْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلَاقُو اللَّهِ كَمْ مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴿249﴾ وَلَمَّا بَرَزُوا لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالُوا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴿250﴾ فَهَزَمُوهُمْ بِإِذْنِ اللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُودُ جَالُوتَ وَآتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُ مِمَّا يَشَاءُ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ وَلَكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾[1].

1 - لقد كان التمهيد للدرس هذه الجولة صحوة الإيمان عند بني إسرائيل حيث رغبوا في أن يبعث لهم قائد يتولّى تنظيم صفوفهم؛ ليستردوا حقهم المغتصب ويثأروا ممن ظلمهم واعتدى عليهم. فقد كانوا في

---

(1) سورة البقرة، الآيات: 247-249.

نقاشهم لقضيتهم مندفعين بحماس المؤمن وعزيمة الواثق بنفسه، حتى إنهم أبدوا الأسباب التي تسوّغ لهم اللقاء بأعدائهم..

فهم قد أخرجوا من ديارهم، هم وأبناؤهم بقوة السلاح، ولم يقولوا هذه المرة كما قالوا لموسى من قبل ﴿فَاذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ﴾[1].

وحين يكتب عليهم القتال فماذا يحدث يا ترى؟

2 - إن الدرس يعرض هذه النماذج في إطارها الاجتماعي موضحاً مصادر تكوينها النفسي في ضوء طبيعتها الخوارة إزاء الجدِّ إذا جدَّ. والحقيقة القتالية إذا أسفرت عن وجهها الصارم حيث لا تبقى في الميدان سوى الفئة القليلة ثابتة الأقدام راسخة الجنان.

3 - وبعد التمهيد يقدم الدرس وسيلة الايضاح بظلالها وألوانها ولمساتها، تحمل صورة القائد وهو يسير بجنوده لملاقاة العدو، ولم تكن دعوتهم للجهاد عن كره وإجبار، بل عن طواعية ورضا واختيار.

4 - ويقف القائد ليعلن أن الاختبار سيكون عسيراً. إغراء لا يقاومه إلا من تنبع إرادته من إيمان يتّصل مدده بالله عز وجل: نهر يتدفق ماؤه نقيًّا صافياً عذباً نميراً، إنه الحياة، فمن يتشبّث بها ويحبّها فما من صبر يحول بينه وبين أن يعبَّ من مائه عبًّا.

والذي يفعل إنما يرسب في الامتحان؛ لأنه غير قادر على مواجهة الموت، ومن لا يحرص على الموت فلا توهب له الحياة.

ومن الناس من يضع للحياة معنىً يراه من ثقب ضيق في محيطه. وما رؤيته في الحقيقة سوى سراب، ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُۥ لَمْ يَجِدْهُ شَيْـًٔا وَوَجَدَ ٱللَّهَ عِندَهُۥ فَوَفَّىٰهُ حِسَابَهُۥ ۗ وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ﴾[2].

---

(1) سورة المائدة، الآية: 26.

(2) سورة النور، الآية: 38.

5 - أما النوع الثاني، كما وضّحه الدرس، فهو الذي نفّذ الأمر ممتثلاً لما صدر عن القيادة؛ لأنه أدرك بعمق محتوى الدرس، وفهم أن حقيقة الحياة ليست في تلك الشربة، ولكنها فيما وراء ذلك: في عظمة الانتصار في ترسيخ المثل، في إرساء دعائم القيم الرفيعة في الدفاع عن سمو المبادىء، في إحقاق الحق ورفع راية العدل، في الاستشهاد الذي يحمل كنه الحياة الدائمة بكل أبعاده.

6 - النوع الثالث، فهو الأقل تحمّلاً، وهو يمثّل المستوى الذي لم يحتلّ رأس قائمة النجاح، ولم يكن في ذيلها، ولكنّه كان في موقعه الذي يسمح له أن يجتاز مع الذين اجتازوا؛ لذلك أبدى تخوفه من عدوه الذي رأى أن في عدّته ضخامة، وفي عدده مهابة، وقد فاته ما ذكر به من قبل الذين امتلأت قلوبهم بحبّ الله، وغمرت نفوسهم السكينة والثبات؛ لأنهم أيقنوا أن النصر من عند الله، وأن القاعدة الإلهية هي أن تكون الفئة المؤمنة قليلة؛ لأن مساحة القمة لا تتّسع إلا لمن صعد يرومها مهما كانت مشقة الطريق، وأحس في أعماقه بقوة تفوق قوة الواقع المنظور.

7 - ولقد أرشد الدرس إلى أن القائد المختار لم تهزه الخلخلة التي وقعت بين صفوف المقاتلين نتيجة الغربلة التي اقتضتها عملية الإعداد.
لقد تخلّف الكثيرون. فلو واصلوا مسيرة الجهاد فماذا هم فاعلون؟ إنهم لن يزيدوا االمؤمنين إلا خبالاً وتوهيناً وتثبيطاً. ولكن الله كره انبعاثهم فكفى المؤمنين فتنتهم ووقاهم عدوى جبنهم وخذلانهم، قعدوا حيث هم يستمتعون بمنظر الماء الجاري الذي يستهوي ذوي النفوس الضعيفة.

8 - إن مصدر الثقة بالنفس مستمد من ينبوع الثقة بالله، وهذه الثقة هي السبيل الوحيد الذي يربط المقاتل بأسباب النصر. فحيثما توافرت كان النصر حقيقة واقعة تعيش بين صفوف المقاتلين وتحيا في أعماق نفوسهم نوراً يكشف لهم مقدار قوتهم، ولو كانوا فئة قليلة وضآلة عدوهم ولو كان جالوت وجنوده.

﴿قَالَ ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُواْ ٱللَّهِ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةَۢ بِإِذْنِ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾[1]

9 - إن الغلبة حقيقة لا ريب فيها ولا مراء فهي لم تكن من صنع التقدم العسكري أو تفوق في العدة والعدد المظهري ولكنّها من صنع الله، فهو المخطط، وهو الذي يختار من يتولّى القيام بالمهمّة لتتمّ من خلاله عملية التنفيذ، مهمة سحق الباطل ونشر الحق.

ومن يختار فلا يمكن أن يتخلّى عن أصفيائه يدافع عنهم أينما كانوا، ويدفعهم بصبرهم ومعيّنه إلى النصر المبين.

10 - إن المقاتلين ليرفعون شعار المعركة وهم لا يزالون في خطوتهم الأولى، فحين تلمس أقدامهم أرض القتال والمبارزة لم ينسوا أنهم إنما يقاتلون بإذن الله الذي ربّاهم في مدرسة الجهاد فأحسن تربيتهم القتالية وتدريبهم على الصبر والجلد والتحمل في أحرج الساعات وأعصب المواقف، ألسنتهم ترتفع بنغمة متسقة متآلفة تهز أوتار القلوب.

﴿رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا...﴾ لجوء لا ينقطع، واتصال لا يعرف الانفصام. إنه نداء صادر من قلوب تفيض بحب الذي ربّاها؛ ليفرغ عليها من وافر الصبر ما يغمرها بمسكوب السكينة والاطمئنان.

11 - ﴿وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا﴾ والثبات هنا عنصر من العناصر التي تفتح باب النصر وتشد من أزر المقاتلين في ميدان المعركة، فالمرحلة الأولى، صبر على مكاره الحرب وهولها وشدائدها.

أما الثانية؛ فهي صمود وكفاح حتى لا تتزلزل الأرض من تحت أقدامهم، إنه الشباب المطلوب في مثل هذا الموقف وفي غيره من مواقف الحياة

---

(1) سورة البقرة، الآية: 247.

المتعددة، ثبات على المبدأ، ثبات في حالة الزهو بالنصر حتى لا يداخل النفس الغرور والعجب، ثبات اليد عند تسديد ضرب أهداف الأعداء.

ثبات الجنان واللسان عند القول والطعان:

﴿يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَيُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلظَّٰلِمِينَ ۚ وَيَفْعَلُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ﴾[1].

12 - ﴿وَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾

النتيجة المرتقبة التي يحس بلذتها المؤمنون وينتشي بعذوبة مذاقها المكافحون. كفر، وإيمان، ونصر، وهزيمة ﴿فَهَزَمُوهُم بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ ومن هنا يبدأ درس آخر للتربية والإعداد: إعداد «داود» عليه السلام. إنه لم يكن سوى جندي صغير تحت قيادة «طالوت» لا رتب ولا خطوط. ولكن نقطة البداية تبدأ من أرض المعركة تلك منذ الساعة التي شهدت الجولة الأولى لمبارزة «جالوت» الطاغية الجبار القوي - ومن من المقاتلين كان يتوقع تلك النهاية: أن يقتل داود «جالوت»؟

وما دامت الهزيمة بإذن الله فلم لا يكون القتل بإذن الله؟ ولكن من خلال الذي بُدىء في تأهيله وإعداده.

﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ﴾[2].

﴿وَقَتَلَ دَاوُۥدُ جَالُوتَ﴾[3].

أول فصل الدرس كان قتلاً للظلم وقضاء على الطغيان واجتثاثاً لنبتة الشر، واقتلاعاً لجرثومة الفساد، ليصفو الجو الذي تنمو فيه نبتة الخير، ويخلو

(1) سورة ابراهيم، الآية: 29.

(2) سورة الأنفال، الآية: 17.

(3) سورة البقرة، الآية: 249.

الميدان من كل المعوقات وغبش التصوّرات الزائفة، لتتابع بعد ذلك بقية الفصول تتنشّق عبير الملك والحكمة والمعرفة؛ ليصبح ذلكم الجندي الصغير وارثاً لملك كبير وعلم غزير، حيث يؤسّس دولته على ركيزتين: العلم والإيمان.

وهكذا يتم الاختيار الإلهي كما تم من قبل لـ «طالوت» ذي البسطة في العلم والجسم؛ ليبقى التدافع بين معسكري الخير والشر قائماً حِفاظاً على سلامة الأرض واتزانها حى لا تميد وتتصدع، بل تثبت، ولكنّها موّارة بحركة الحياة، زاخرة بمواكب المتسابقين في قوافل تسعى وتتزاحم لتمكين لبنات الخير بالجهاد الدؤوب لإزالة ركام الشر والبغي.

التوجيه في ميدان النفس:

في الجهاد الأكبر جهاد النفس حيث يجوس التوجيه خلال أعماقها؛ ليضع لها بوابة التوقف التي ترصد الحركة وتحدد الاتجاه وتفحص زاد الطريق حتى لا يكون به ما يسيء ويؤذي. أو يخنق المسيرة ويكسر الشوكة.

فلا بد إذن من التصفية والتنقية والتطهير لتسلم مظلة الدعوة من ثقوب الكيد والخيلاء.

﴿لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ أَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَنزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَذَٰلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ ﴿٢٦﴾ ثُمَّ يَتُوبُ اللَّهُ مِن بَعْدِ ذَٰلِكَ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾[1].

1 - لفتة توجيهية مثيرة موحية، ساقها الدرس في افتتاحيته التمهيدية اقتباساً من واقعهم التاريخي الذي لم يفصلهم عنه سوى فترة زمنية قريبة جدًّا في

(1) سورة التوبة، الآيات: 25-27.

سلسلة حياتهم الكفاحية. تترآى لهم إذ يشاهدها حسهم ويوقظها في نفوسهم أثرها الطيب، فنشوة النصر لم تزل تحيا في كيانهم تألّقاً وزهواً.

وإن الزهو ليخلب النفس فيضع الغلالة التي تحول دون وضوح الرؤية.

فممن كان النصر؟ أبكثركم في العدد؟ أم بقوة عدتكم أحرزتم تلك الانتصارات؟

لا. ليس كما يتوهم البعض. فالدرس إذن، يستلّ الإجابة العملية من أعماق نفوسكم يقوّمها، يُريها الحقيقة تمشي بين صفوفكم.

2 - إنه العجب الذي يتسلّل كاللص في الخفاء فيلابس النفس ليحجب عنها وهج الحقيقة. إنه الانبهار الذي يأسرها، فيصنع لها قالباً من الاختيال والكبر ثم يقود إلى التعلق بالمعجب به إلى درجة التخلّي نهائياً عن أخصّ خصائصها.

3 - في بداية الموقف يتحوّل الاتجاه الى الانفعال بالكثرة، ويتخلف الشعار الحقيقي الذي يجب أن يُرفع:

﴿رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا﴾[1]

وخطر هذا التحوّل يعم الجميع فلا يعرف الاستثناء؛ لأنه ناشيء عن خلل في أعماق النفس؛ لذا كان التوجيه قاسياً في ميدانه، ففي لمح البصر ما كان رؤى وردية بات أشباحاً مخيفة.

فأين سعة الأرض وبراحها؟ وأين آفاقها الفسيحة؟ لقد ضاقت حتى أصبحت ككفة الحابل فلم يعد بها موقع قدم لتلك الكثرة التي كانت تحتفي بها أرض شاسعة الأطراف. ﴿ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ﴾ إنه لمشهد يثير الرعب والفزع!!! مؤمنون يديرون ظهورهم هاربين، عجب ينشأ عنه عجب! ولكن الدرس يكشف عن السبب؛ ليكون درساً يحمل التوجيه الذي يجوس خلال أعماق النفس في

(1) سورة البقرة، الآية: 248.

كل المواقف وعلى جميع المستويات أفراداً وجماعات ليئد بذور الغرور والعجب المقيت.

4 - ويثبت رسول الله صلوات الله عليه، وتثبت من حوله الفئة القليلة التي لم تضق أمامها أرض المعركة؛ فهي في أرجائها واسعة، وفي آفاقها منبسطة تحتفل بالصامدين؛ لأن الشعار الحقيقي ظل ماثلاً فلم يتحوّل ولم يصب بخلل الإعجاب بالكثرة. وفي خضم التجربة العملية تبرز حقيقة التوجيه الإلهي لتنتشل من استولت عليهم غفوة الإعجاب برهة فتردّهم إلى صحوتهم، وتقرر أن الكثرة لم تغن شيئاً إذا قادت إلى الانحراف الذي يؤدّي إلى الهزيمة؛ لأنها غالباً ما تضمّ بين صفوفها من لا يرى الأمور إلا من إطارها الخارجي، دون أن يدرك عمق الحقيقة التي تصله بربه وتربطه بأسباب النصر في ساعة العسرة والتحام الصفوف.

وهكذا نجد القاعدة التي لا تتخلّف، وهي أن الطليعة دائماً تكون في المقدمة لتحمي العقيدة وتصدع بكلمة الحق لتنال رضا الله الذي يمدّها بنصر من عنده؛ لأنها ضحّت في سبيله وكافحت تبتغي وجهه الكريم، فباب مغفرته مفتوح لمن يخطىء فيتوب.

﴿ثُمَّ يَتُوبُ اللَّهُ مِنْ بَعْدِ ذَٰلِكَ عَلَىٰ مَنْ يَشَاءُ ۗ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾(1). إذن فشمولية التربية قد أقرّها المنهج القرآني،لكي يظاهر كل جزء منها أخاه: فصفاء النفس إلى جانب نقاوة الضمير وطهارة الوجدان قرينة بتحرير العقل من كل الأهواء والقيود. إذا تم هذا الانسجام . وهو شرط أساسي في تحقيق النصر الذي يريده الله . التأم عقد الأمة واختفى النصر المزيّف الذي يحجب ملامح الحق حيث يرتكز الصراع على قاعدة الأضداد وسط دائرة الباطل ليتفانى الباطلان ويتطاحن الشران.

(1) سورة التوبة، الآية: 27.

﴿وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ الْمُؤْمِنِينَ مَقَاعِدَ لِلْقِتَالِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ۝ إِذْ هَمَّت طَّائِفَتَانِ مِنكُمْ أَن تَفْشَلَا وَاللَّهُ وَلِيُّهُمَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ۝ وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ فَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾(1).

1 - يبدأ الدرس بالتذكير. والتذكير إنما لفت للانتباه وإثارة للاهتمام، وعنصر من عناصر الربط لسلسلة الأفكار التي يتوقف توضيحها على تداعيها لتجذب المتلقّي إلى دائرة التفاعل مع جزئيات المعلومة.

2 - كما أن تحديد الوقت يعطي الفاعلية للحركة، نحو الاتجاه التنظيمي والإشراف المباشر من قبل القائد، حيث يغادر أهله في وقت مبكر قد تستدعي حاجتهم بقاءه، ولكن عظمة المهمة تقصر دونها الحاجات.

3 - إن توزيع المسؤوليات أمر لا غنى عنه في عملية الإعداد، ولا سيما العسكري، إذ به يتم إسناد المهمات لذوي التخصصات المختلفة.

وكذلك تحديد الأمكنة على أرضية المعركة؛ ليكون التحرّك حذراً داخل الخطوط المرسومة ووفق مقتضيات الظروف التي ترصدها طبيعة الموقف.

لذا، نجد التعبير بكلمة ﴿مَقَاعِدَ لِلْقِتَالِ﴾ موحياً بقطعية الأمر التي تفيد تأكيد الثبات في ميدان الدرس مهما كانت قسوة التجربة؛ لأن تهيئة المقعد حينما تكون للمؤمنين إنما تعني التمكين وعدم التقهقر.

4 - ورغم الدقة التنظيمية التي اتسم بها الدرس في تحضيره؛ فقد كاد الفشل أن يطل برأسه لولا أن منَّ الله على المؤمنين، إذ وقاهم شر الوقوع في هوة التخاذل والجبن، وأوضح لهم أن السيطرة على النفس قوة من أعظم القوى في ميدان المعركة.

وأن التحكّم في نزواتها زاد يتزوّد به المقاتل، وسبيل إلى امتثال أمر القيادة

---

(1) سورة آل عمران، الآيات: 121-123.

والتقيّد بتوجيهاتها؛ لأن بداية الإعداد إنما تتحرّك في انطلاقتها من قاعدة النفس، أفراداً وأمة، حيث تتجاذب حلقات الدرس لتلتقي حول محور واحد، مرتبة متناسقة: الإيمان، التوكّل على الله، التقوى والشكر، الاطمئنان والصبر.

هذه الأسس لا بد أن تحيا مع أفراد الأمة. يعيشها الفرد، أولاً في موقفه داخل نفسه، ثم في موقفه ثانياً إزاء الآخرين. وليس من كمال الإيمان أن تظلّ حبيسة قوقعة النية الحسنة والأفكار الطيبة.

ولكنّ تجسد أعمالاً تنطق بالقوة المتدفقة بدماء الحياة التي خطّ سبيلها المنهج القرآني ليحياها المؤمن الذي لا يعرف الوهن حين يقدم ولا للحزن منفذ إلى قلبه؛ لأنه لن يُغلب، إما أن ينتصر وإما أن يظفر بالشهادة.

أمران لا ثالث لهما: «النصر أو الشهادة»

﴿ فَلْيُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يَشْرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ وَمَن يُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾[1].

5 - ولقد ثبت أن هزيمة النفس أمام الهوى والشهوات والمغريات أشد خطراً وأسوأ أثراً في ميدان القتال؛ لأن هزيمتها تجرّدها من عناصر القوة وتسلبها جرأة الاقتحام، حيث تقعد مع القاعدين في مستنقع الهوان، لذلك توخى التوجيه الإلهي في المنعطف الأول للطريق أن يدرأ الفشل فيستلّ مخالبه من بين صفوف الأمة بولاية الله وعونه.

ولكن للدرس بقيّة وللتّوجيه جولة، حيث يمتدّ الدرب بالقافلة؛ ليأتي المنعطف الثاني الذي قد أصاب القوم من شرّه رذاذ.

فكانت الحصيلة ذات مغزى عميق في محيط الأمة التي تلتمس العلم والمعرفة من مواقف القتال، إذ يبدو سرّ الخلل الذي وقع بما نسى المتبوئون

(1) سورة النساء، الآية: 73.

ما أُمروا به عند ذاك الصباح، فتركوا مقاعدهم خالية في قاعة الدرس وبخلوّها تنفتح الثغرة للأعداء الذين التفوا حولها ينشدون بغيتهم في أمل قد لاح بين صفوف من المقاعد خالية.

وتحين الفرصة للمفاجأة في خضم الاضطراب الذي اندلعت ألسنته من جوف الطمع المادي الذي لاح في أفق المعركة، قاتماً متجهماً متوعداً ألا يفلت من قبضته الحديدية إلا من كان بقلبه قبس من قبسات الإيمان.

ولو لم يحدث الذي حدث ما كان للدرس بالغ الأثر في ميدان التربية النفسية.

ومن ثم ندرك أن فتنة المال معول هدم وجرثومة فساد. لقد تكرر التحذير من خطرها بالرغم من أن المال قد اعتبر في الكفّة المساوية للنفس في فريضة الجهاد.

صحيح أن المال قد يهيىء الطريق للتضحية بالنفس لتتمتع بالنعيم المقيم.

ولا أحد ينكر أن للمال وجهاً آخر فاتناً برّاقاً، حيث يصبح غاية تتلهّى به النفس عن القيمة الحقيقية التي لا تقاس بالمقاييس المادية. وتلك القيمة هي التي تخطّ طريق النصر. لأن للنصر سبيلاً قد رسمته إرادة الله، ولن يتم تنفيذ ما أراده الله إلا إذا تطهرت نفس المؤمن في مختلف مجالات حياتها مما يذلها لشهوة جمع المال التي تَقْطع ما أمر الله به أن يُوصل.

المنهج القرآني والواقع البشري

الواقع البشري لا ينكره المنهج ولكنه لا يقرّ التمادي والغلو في آفاق البشرية، تلك التي تنسى الإنسان أنه مخلوق أنيطت به رسالة نبيلة ترخص في سبيل تحقيقها حياته الفانية.

فحين يفرض القتال يعترف صراحة بأن النفس تكرهه. وهذا الكره المسموح

به فـي الواقع البشري يجعل الـمتأمل بعيداً عن منطقة الاضطراب النفسي والعصبي. فهو إذن، علاج إيجابي يخفّف من وطأة الألـم الذي لا يحس مرارة مذاقه إلا من كابد مشقة الـحرب وخاض غمارها.

﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ وَعَسَىٰ أَن تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَعَسَىٰ أَن تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾[1].

1 - يسجّل الدرس هنا فرضية الـجهاد مؤكدة. ولـم يقـف عند نقطة عرض الـمعلومة فـي إطار توجيهها الإجبـاري، ولكنّه يبدي ما تنطوي علـيه النفس من إحساس داخـلـي. وهذا واقع لا بد من التعامل معه فـي مثل هذا الـموقـف، لكي يتـخذ منه منطلقاً ومرتقـى لتـحقـيق الـمثل الأعلـى.

2 - وإن يك الدرس قد عرّى الطبـيعة البشرية، فإنه فـي الوقت نفسه قد وضع العلاج الذي يضمن لها الشفـاء الواقـي من كل ما من شأنه أن يكون لإصابته أثر شائن.

3 - لقد أقرّ أحقـية الكراهية للقتال، لـما فـيه من مشقّة وعنت وتضحية، ولكن لـيست أحقـية مطلقة، بل قـيدت بأن لا تتـجاوز مـحيط الشعور؛ لأن ظواهر الأمور التـي تُرى إنـما تـختفـي وراءها حقائق هي فـي ميزان الله صلاح وخير.

إذن، فـالـمقايـيس فـي النهاية إنـما ترجع إلـى الله الذي خـلق الـحياة كلها ومنـح من الهبـات ما يدفع الـموهوبـين إلـى تنفـيذ أمره لإحراز النصر الذي وعد به الـمؤمنـين.

وكم فـي واقع الإنسان من أشياء يحبّها لـميزة تترآى له، فـيقبل علـيها بشغف، ثم لا تلبث أن تبدو علـى حقـيقتها قبحاً وعيبـاً، عندئذ تـخبو جذوة الشغف وتـخمد شرارة الـحب.

---

(1) سورة البقرة، الآية: 214.

وهناك أشياء يراها قاتمة فيبذل الجهد والوقت في العزوف عنها لكرهها، حتى إذا ما انجلت الأمور من غبشها وضبابها تبيّن أن في حكمه خطأ، وأن في كرهه مجانبة للصواب، وود لو أنه أحب الذي كره وكره ما أحب. وقد يكون الدواء مر المذاق كريه الرائحة تعافه النفس، ولكن في مرارته تكمن الصحة، وفي كره رائحته العافية للنفس التي تعاف وتتقزّز.

إذن، إن للأشياء بواطن وغايات بعيدة لا تقع في محيط علم الإنسان، فيغيب كنهها ويختفي لبها لحكمة يعلمها الله وحده، حيث يضع لها مقاديرها ويؤقّت مواقيتها؛ لتتم إرادته وفق ما تقتضيه حكمته، وليكون المؤمن في إقباله راضياً مطمئن النفس في إقدامه على التضحية، وهو موقن من أن لا مراء في صدق الوثيقة التي سجلها القرآن الكريم وهي تثبت - بلا ريب - أبدية الحياة للشهداء وهم عند ربهم يرزقون.

وأي حياة أجل وأعظم!؟ وأي رزق أرغد وأطيب!؟ ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾[1].

وقد فهم المؤمنون عمق ما احتواه الدرس، فكان ذلك سدًّا منيعاً لمنافذ الكره، وصدًّا لروافده، وتجفيفاً لمنابعه.

حيث لمسة الإيمان قد لامست قلوب أولئك الذين كان الواحد منهم يقول: أليس بيني وبين الجنّة إلا أن أقتل هذا الرجل أو يقتلني؟ ثم يلقي بنفسه في المعركة فيستشهد وهو قرير العين!».

وذاك آخر يُلقي بثمرات من رُدنه قائلاً: بخ بخ فلم يحل بيني وبين الجنة إلا أكل هذه الثمرات فيندفع إلى أتون المعركة يضرب بسيفه حتى يستشهد وهو مزهو فرح مستبشر بما أسبغ عليه الله من نعمه التي لا تحصى.

(1) سورة آل عمران، الآية: 169.

﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾[1]

إنها الحقيقة التي لا يدرك عمق معناها غير المؤمن الذي أسلم وجهه لله وهو محسن.

﴿۞ وَمَن يُسْلِمْ وَجْهَهُ إِلَى اللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ ۗ وَإِلَى اللَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ﴾[2].

ويمضي المنهج القرآني منبّهاً الذين لا يعلمون إلى الحد الذي تقف عنده حقيقة علمهم في دائرة ما تدركه عقولهم من جانب المحدود المتصل بواقعهم، حيث ينتقي لهم من الألفاظ ذات الدلالة الموحية بما تتعلّق به النفس البشرية من كسب مادي في محيط دوافعها وحاجاتها الجسدية. ثم يتحول بها إلى تصحيح المفاهيم التي ترتقي وتعلو عن الطبيعة المادية في جانب هبوطها ومخابىء خبثها ومهاوي هلاكها.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَارَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿١٠﴾ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١١﴾ يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ ۚ ذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿١٢﴾ وَأُخْرَىٰ تُحِبُّونَهَا ۖ نَصْرٌ مِّنَ اللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ ۗ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾[3].

1 - يمتد النداء الإلهي مستخدماً الأداة الدالّة على تنبيه من بُعْد؛ ليقبل. ولم يكن المكان قصيًّا ولكن البعد كان بعد منزلة وسمو مكانة، ليشعرهم بصفة الإيمان التي تضعهم في المكان اللائق.

ليقول لهم: أنتم أهل لأن تستجيبوا ولأن ترهفوا السمع، ولأن تقبلوا فتتقبلوا ما يلقى إليكم من ألوان الهدى وضروب المعرفة.

---

(1) سورة البقرة، الآية: 214.
(2) سورة لقمان، الآية: 21.
(3) سورة الصف، الآيات: 10-13.

2 - وحين تتم التهيئة في جوّها النفسي يسوق الدرس المعلومة في صيغة الاستفهام لتقف النفس وكأنها في مفترق الطرق تلتمس الرشاد والنصح متطلعة مترقبة، وإذا بالدلالة التي تعني الهداية برفق ولين تأتي في لحظتها.

ولكن علام؟ على تجارة. وأي تجارة؟ أتلك التي عرفت في أسواقهم: بيع وشراء وثمن وسلعة؟

أم أنها من نوع آخر؟

إن واقعهم الذي يحتضنهم لا يرون فيه سوى صورة تجارتهم بمفهومها. بسوقها تلك، بممارساتها اللاهثة وراء الكسب الرخيص والربح الهابط.

3 - وبعد السير الحثيث في ساحة الواقع المحدود يسطع نور الحقيقة كاشفاً مفهوم التجارة التي يفوز في رحابها المؤمن بموفور الخير وعميم الثواب، حيث تستلمه أرجوحة النجاة من العذاب المؤلم والعقاب الموجع.

ثم يضع الدرس اللبنة الأولى في بناء المفهوم الحقيقي؛ فهي ليست ديناراً ولا درهماً، ولكنها إيمان ينسكب في القلب نوراً، وفي النفس سكينة، وفي الروح رضاً وارتياحاً.

ولم تكن لبنة الإيمان هذه قد غربت عن أذهانهم؛ فهي في أول الدرس عنوان وسمة وسِمُوا بها ليأتي من بعدها ـ تنسيقاً ـ ما يستوجب توجيههم إلى مرفأ السلام.

4 - ثم أعيدت لتكون القاعدة التي تنهض بعبء البناء مستقرًا في شموخه، صامداً في مواجهته لأشرس التحديات وأعتاها لؤماً وخبثاً.

وأعيدت أيضاً ليكتمل عنصر التشويق الذي يأسر النفس فتضلّ في لهفة ترقبها وامقة ـ لترى وهي تسعد ـ اللبنة الثانية تُحمل لتحتل مكانها في بناء المفهوم الحقيقي.

5 - وعقب الإيـمان تساق لبنة الـجهاد بصيغة الفعل الـمضارع؛ لـيفـيد التـجدد والاستـمرار.

وهذا ملـحظ جدير بـالاهتـمام ولفت الانتبـاه، إذ مع كل مطلع شمس تبدو له صور فـي ثوبها من الـجديد فنون ـ وفـي النفس البشرية من ألوان الصراع أضرب تبعاً لتغيرات الـحياة فـي زحفها الـمتطور.

لذا سلك الـمنهج فـي علاجه لـموضوع الـجهاد درب التكرار لتوثـيق الصلة بـين التـخطيط والتنفـيذ.

كما عمد فـي تعقيبه إلـى التأكيد على نوع الـجزاء بطريقة الـمقارنة التـي تقود إلـى الـمفـاضلة.

تـيسيراً لأداة الفهم البشري، واستـمالة للنفس الـمتطلعة دوماً إلـى الـحافز الذي يدفعها إلـى الـمزيد من بذل الـجهد، ويحضّها علـى مواصلة العمل عن قناعة ورضاً نظيفة السـريرة سلـيـمة الطويّة.

6 - ومن خصائص الـمنهج كذلك لـجؤوه إلـى التفصيـل بعد أن يطرق الـموضوع أولاً ـ مـجملاً؛ لأن شوق النفس ينـمو متصاعداً فـي بداية الـمرحلة، وكلـما ارتقـى درجة تـمكّن الـمعنى وتأكّد حتـى لـم تبق ثغرة للتسرّب أو منفذ للتسلّل: ـ مغفرة الذنوب، الـجنة ذات الأنهار، الـمساكن الطيبة الـمريحة. إنها قائمة الـمكافأة السخيّة التـي تـمنـح لـمن تـحمله أرجوحة النـجاة.

7 - وفـي اللّـمسة الـختامية من لـمسات الدرس، يعود الهتاف بواقع النفس البشرية؛ لـيذكّرها بـما تـحبّ، كما ذكّرها من قبل فـي مسيرتها ـ بـما تكره، لكي تدرك أن فـي استقامتها علوًّا، وأن فـي تطبـيقها لـمفردات الـمنهج فتـحاً ونصراً.

﴿وَأُخْرَىٰ تُحِبُّونَهَا نَصْرٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾(1).

إنها البشارة بـما تـحبون وقد يكون الكره عائقاً للبشارة إذا أقعدكم فقـيّد

(1) سورة الصف، الآية: 13.

خطواتكم الأولى حيث لم يعد للقافلة أمان، ولا للطريق وضوح، فلا نصر ولا فتح ولا بشارة. ويقف عندئذ الدليل؛ لينفضّ من حوله إلى وجهة هم باتجاهها - لا محالة - هالكون.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا آبَاءَكُمْ وَإِخْوَانَكُمْ أَوْلِيَاءَ إِنِ اسْتَحَبُّوا الْكُفْرَ عَلَى الْإِيمَانِ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ۝ قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾[1].

1 - يرتفع الصوت الإلهي منادياً من توسّم فيهم الاستجابة ولمح في ملامحهم آية الخضوع والانقياد لما نهوا عنه؛ فقد ارتبط النداء بالتحذير في هذه الجولة لا بالاغراء كالجولة السابقة حيث وضع معالم تحدّد وشائج القربى وتضبط علاقة المسلم بغيره في المجتمع الإسلامي، ولم يكن لهذه العلاقة من مصدر يغذّيها بعناصر النمو والبقاء سوى الإيمان.

فهو التربية الصالحة التي تجد في أحضانها النفس المؤمنة الاطمئنان والرضا، وتمتصّ من ثبايا عِطْفه رحيق السكينة ودفء الاستقرار.

أما إذا خلا القلب من نور الإيمان وجفّت حنايا النفس من سكينة العقيدة فلا عبرة بنسب ولا اكتراث بقربى ولا مُعوّل على آصرة من دم؛ لأن الأب لم يعد أباً، وكيف يكون الأخ أخاً وقلبه قد مُلىء كفراً، ونفسه مشحونة حقداً.

فالكفر هو الحد الفاصل الذي ينبتّ على أديمه حبل المودة، وتنفصم على أرصفته عرى البر، وينفرط على قاعه عقد المناصرة والموالاة.

---

(1) سورة التوبة، الآيتان: 23، 24.

2 - إن الدرس في توجيهه ليلفتنا إلى أن للآباء سلطة التأثير وحق الطاعة.

ولكن هناك فرقاً بين الطاعة في أمور الدنيا والطاعة عندما تدخل في دائرة العقيدة، أو في جانب يتعلق بنصرتها والذود عن كيان الأمة التي حملت مسؤولية نشرها. فموقف المؤمن هنا موقف دقيق يتطلّب حكمة تُقتبس أصولها من المنهج الإلهي ليتمّ بذلك السير النقي الحذر الذي يخلو - في مختلف مراحله - من حرج العواطف الإنسانية وصدامها الذي يؤدي إلى كبت مشاعر الحنان والعطف في البنوة والأبوة على السواء.

لذا نرى المنهج القرآني قد دعا إلى الحفاظ على المصاحبة بالمعروف في الدنيا.

والمعروف هنا في مفهومه لا يَرقى إلى مستوى النصرة والموالاة وإلقاء المودة المتضمّن إفشاء الأسرار العسكرية؛ لأن الكتمان في هذا الشأن - فضلاً عن كونه واجباً دينيًّا - هو ركن كذلك من أركان الجهاد في شتى مراحله.

3 - ثم يعطف التوجيه الإلهي، فيذكر ثمانية أنواع هي بمثابة المرتكزات التي تستهوي النفس البشرية في محيطها الاجتماعي، وهي أيضاً تمثّل الدعائم التي تحمل بناء المجتمع الإنساني: فحب الابن أباه والأب ابنه حب فطري مركوز في وجدان كل مخلوق، وحاجة نفسية لا تنفك عن الطبيعة الحيّة الواعية التي تنبعث منها الخلية الأولى للمجتمع.

كما أن الأخ يلتقي مع أخيه في وشيجة الرحم، فهما صنوان وإلفان في مسيرة الحياة، وليس لأحدهما غنى عن الآخر.

4 - ثم تأتي مرتبة الزوجة مكمن العطف ومنبع الحنان ومأوى السكن والاستقرار. فهي مصدر الحب ومبعث الألفة، وهي الشجرة التي تمتدّ من أصولها فروع؛ لتكوّن العشيرة التي تشبع حاجة الفرد كعضو في انتمائه للجماعة، ووعيه بأن باندماجه يشعر بالاعتزاز يغمر نفسه ويحس بأنه مدعوم بقوة الجماعة وهذا الإحساس يؤدّي إلى تعميق معنى الهوية

الاجتماعية التي يفيدنا: «علم النفس» بأنها تعني التقمص النفسي للجماعة نتيجة الأثر المباشر الذي يحتوي الفرد فيجعله في حالة انجذاب مستمرّ بحبّه الذي لا ينقطع.

5 - وحب المال والحرص على جمعه لا يمارى فيه أحد، ولا يحتاج إلى دليل. فالواقع يسوق ألف دليل، وفي النفس منها على صدقه خير دليل.

ولم تكن التجارة هذه كتلك التي وردت في معرض الدلالات المنجية.

ولكن التجارة هذه المرة؛ إنها تجارة الكسب المادي والكساد والبوار، الكسب الملقى في الدرك الأسفل من النار، المردي في محرقة العذاب إن رأى الكاسب أنه غاية.

أما المساكن التي ترضونها في هذه الدنيا فهي قد استهوتكم بزخرفها، وبهرجها، وبريقها ولمعانها. فما قيمة ذلك كله إزاء المساكن الطيبة؟

وأين هي؟

إنها في جنات عدن.

6 - كل هذه الأنواع وضعت مجتمعة في كفة وقدمت للنفس البشرية أمامها استقرت بكل ما تحويه من جواذب، وما تشتمل عليه من إغراءات الشهوة وبريق الزينة ولذائذ المتعة. هذه كفة.

وماذا في الكفة الأخرى من ميزان الله؟

إنه حب الله ورسوله وجهاد في سبيله.

إن خدعتم ببريق الشهوة إن أخلدتم إلى الأرض إن لم تعو الدرس: ﴿فَتَرَبَّصُوا حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾[1].

---

(1) سورة التوبة، الآية: 24.

بلغة العصر يـمكن أن نسمّي ذلك التنظيـم الذي سجّله التوجيه الإلهي: لـيضع ملامـح الاختصاصات الـمحدَّدة فـي تطبيقها لكل عضو من أعضاء الـمجتـمع، وكذلك لكل من توكل إلـيه مهمة تـحمّل عبء الـمسؤولـية فـي أي مـجال من مـجالات الـحياة.

إنه يرسم للفرد إطاره التنظيـمي الذي تسمـح له حريته أن يتـحرّك داخـله، حيث يشعر بأن لتلك الـحرية مقداراً لا يتـجاوز ما يناط به من مسؤولـية.

فـالـحر، إذن، هو الذي يكون مسؤولاً، ولـيس لأحد ما أن يتصوّر أن الـحرية مفصولة فـي جوهرها عن الـمسؤولـية. وعندما ينتاب الـمرء، أيًّا كان، إحساس بأنه غير مسؤول يرتـمي ـ ولو لـم يبدو له ـ فـي أحضان العبودية التـي تدفع إلـى التـخلّـي عن وظيفة الكمال البشري.

تلك الـمرتبة التـي هيّأها الـمنهج القرآنـي للإنسان الذي يستـحقّها، ويكون استـحقاقه عن جدارة إذا قبل تـحمّل عبء مسؤولـيته برضًى واختـيارٍ.

عندئذ ينال الـمدح؛ لأنه حرٌّ.

ولقد مُدح الإنسان وذُم؛ لأنه للكمال البشري أهل، وللنقص كذلك، بـما فطر علـيه من استعداد لكل منهما.

﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِذَا كَانُوا مَعَهُ عَلَىٰ أَمْرٍ جَامِعٍ لَّمْ يَذْهَبُوا حَتَّىٰ يَسْتَأْذِنُوهُ ۚ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ۚ فَإِذَا اسْتَأْذَنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأْذَن لِّمَن شِئْتَ مِنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمُ اللَّهَ ۚ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (62) * لَّا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُم بَعْضًا ۚ قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنكُمْ لِوَاذًا ۚ فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (63) أَلَا إِنَّ

﴿لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ قَدْ يَعْلَمُ مَا أَنتُمْ عَلَيْهِ وَيَوْمَ يُرْجَعُونَ إِلَيْهِ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾(1).

1 - تقرير اللائحة في مقدمتها الحقيقة الأولى، حيث اكتفت ـ موجزة ـ بتسليط الضوء على توضيح صفة الإيمان الكفيلة بأن تثير في أذهان المؤمنين عوامل التشويق لتهيئة الجو المناسب للانتقال إلى المدخل الذي أُعدَّ لتقدّم المعلومة في سياقها مرتبة في فصولها.

2 - ثم يأتي بعد ذلك توضيح السبب الداعي للاجتماع. إذ هو أمر ذو أهمية بالغة يتطلّب من كل فرد المبادرة بالحضور وليس للمتخلّف عذر.

فمبدأ الحضور غير قابل للرفض؛ لأن الأمر أمر جامع. فالقضايا التي تطرح ليست هيّنة في موضوعها؛ لذلك يتحتّم على من امتلأ قلبه بنور الإيمان ألا يتخلّى عن مناقشتها بجدّية وحزم، حتى ينال شرف المشاركة الفاعلة كعضو عامل من أجل إسعاد الجماعة المؤمنة.

3 - إن المعيّة التي توخّاها الدرس إنما تُوحي بشدة تماسك أفراد الجماعة من حيث الطاعة والاحترام المتبادل، وتقدير كل منهما للآخر، وامتثالهم جميعاً لأمر النبي صلوات الله عليه، والتزامهم بتطبيق الأسس التربوية التي تتمّ من خلال عملية التفاعل المتمثّلة في الآتي:

الانسجام، التعبير عن الرضا بطريقة عملية، ترسيخ علاقات الألفة والمحبة.

هذه الأسس تدفع الفرد إلى قبول التضحية في سبيل الله والجهاد الدائب لرفع راية الحق والعدل عن قناعة وطواعية. يبدي رأيه، وليس لرأيه من المتعصبين يناقش رأي الآخرين عن روية وأناة، يجيد السماع كما يحسن الإجابة.

وإذا رأى أن في الأمر مصلحة للجماعة آثرها وهو راضٍ طيب النفس.

(1) سورة النور، الآيات: 60-62.

وحين يلجأ إلى ما يعود على ذاته بالخير، إنما يلجأ إليه من خلال الفائدة التي ينال الجماعة من ثمرتها أوفر نصيب؛ لذلك لم يذهب حتى يستأذن. فطلب الإذْن، إذَن، عنوان على الطاعة، وما الطاعة إلا ثمرة من ثمرات الإيمان.

4 - ﴿فَإِذَا اسْتَأْذَنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ﴾[1]

تتنوّع مصالح الأفراد كما تختلف حاجاتهم وفق تجدد ظروف الحياة الذي لا ينقطع تيّاره.

ولم يكن المنهج القرآني بمعزل عن حياة البشر، بل إنه يحياها بكل ملابساتها؛ ليضع للأفراد نظامهم حسب طاقاتهم وقدراتهم، وليعيش في نفوسهم وداخل ضمائرهم يعالج قضاياهم، أفراداً، ولم يدعهم - هملاً - مجتمعين.

5 - وإذا كانت الحقيقة الأولى قد قررت في سياقها خبراً، فإن ما يتعلق بمن أُوكلت إليه مهمة إدارة الجلسة إنما قُررت بصيغة الأمر.

أمر إلهي صدر إلى النبي صلوات الله عليه، وقد تضمّن تفويضاً ﴿فَأْذَن لِّمَن شِئْتَ مِنْهُمْ..﴾[2]

أنت وحدك الذي تقدّر ظروف ملتمسي الانصراف. وبعدُ، فلك أن تتصوّر مدى ما تصل إليه هذه التربية النفسية في تدرجها من عمق وشمول في مجال التوجيه الاجتماعي بهدف إقامة جسور المحبة بين أعضاء الجماعة وقادتهم.

وتأتي لفتة أخرى بارعة بلمستها، خفيفة بديعة، وهي الأمر بالاستغفار إشارة إلى أن مغادرة قاعة الاجتماع يجب أن تُحصر في حدودها الضيقة بعذرها القهري كي تسدَّ منافذ التقصير، فلا يعتذر إلا من ليس له مندوحة لقهر العذر.

---

(1) سورة النور، الآية: 60.

(2) سورة النور، الآية: 60.

6 - وتتلاحق خطوات الدرس لترسي القاعدة التربوية، وهي توقير النبي ﷺ، لتبقى منزلة المربّي رفيعة الشأن في نفوس المُرَبَّين، وبذلك يستشعرون هيبته عندما يكون الخطاب مباشراً، هيبة الاحترام والتقدير لا هيبة الملوك الجبابرة الناتجة عن الخوف والرعب.

وهذه القاعدة التي تحدّد العلاقة الطيبة بين المعلم والمتعلم مهمّة جدًّا؛ لأنها تعتبر اللبنة الأولى في سلوك الفرد وحياة المجتمع الذي ينشد المتعة والعزّة والرقي.

7 - ثم تأتي التعرية والمواجهة الصريحة التي تزيح أغطية النفاق وأردية الخداع، حيث لم يبق للتسلّل ستر؛ فإن الحركة تنكشف بحقارتها والتخلي بجبنه، ودناءة الإعراض بلونها القاتم؛ فقد وجب العقاب إذن، إما فتنة تصيبهم فتفسد أمرهم وتختل في اضطرابها موازين الحياة.

وإما عذاب أليم تطبق عليهم شدته في دنياهم وآخرتهم.

ثم تطل خاتمة الدرس متضمّنة لفت الانتباه إلى أن الله الذي خلق، فربّى لا يُخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء.

﴿قَدْ يَعْلَمُ مَا أَنتُمْ عَلَيْهِ وَيَوْمَ يُرْجَعُونَ إِلَيْهِ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾[1].

إن المنهج القرآني حين يضع الأسس التي يتكوّن منها منهج تربيتنا إنما يستخلصها من شتى مواقف حياتنا.

فمن خلال عبادتنا نجد أنفسنا عندما نقرأ القرآن في صلاتنا أو في جوف من ليل أو ضحى من نهار - وقد طاف بنا في مسارب من الحياة متعددة:

(1) سورة النور، الآية: 62.

يرشدنا إلى النظر فيما حولنا من بديع صنع الله يلفتنا إلى داخل نفوسنا وما تنطوي عليه.

يحثّنا على العمل كطريق يؤدّي إلى سعادة الدارين يضع أيدينا على مختلف الأنظمة التي تمسّ حياتنا مسًّا مباشراً، نحسُّ بها في يومنا الحاضر، وندركها فيما مضى من أيامنا، ونتمثّلها في غدنا القريب والبعيد.

موضوعات يبرزها لنا القرآن، نتلوها بتدبر وعمق: في الجهاد والاقتصاد في علاقاتنا العامة والخاصة، في محيط الأسرة والمجتمع والأمة. يعالج القضايا الصغيرة كما يعالجها وهي جليلة ذات خطر، حتى في تربيتنا المنزلية يضع لنا أنماطاً من السلوك، وتوقيتاً للاستئذان لكي تتشرّب نفوس أطفالنا منذ النشأة الأولى أجمل الخلق وأطيب الأثر للسلوك الرفيع.

وقد سُميت تلك الأوقات عورات؛ لأنها مظنة انكشاف العورات فيها.

والإنسان قد يكره أن يرى ابنه الصغير منظراً لا يتفق مع سنه من حيث الأدب واللياقة؛ لأن لذلك أثراً سيئاً، وانطباعاً قد يبقى في النفس الصغيرة حيث يخرج في كبرها قبيح قول وشنيع عمل.

ولقد ذهب «علم النفس» في تحليلاته إلى أن المشاهد الخالية من اللياقة ينطبع أثرها السيىء في نفوس الأطفال صغيراً، ثم يتنامى حتى يصبح مرضاً نفسيًّا وعصبيًّا يستعصي علاجه.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّىٰ تَسْتَأْنِسُوا وَتُسَلِّمُوا عَلَىٰ أَهْلِهَا ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٢٧﴾ فَإِنْ لَمْ تَجِدُوا فِيهَا أَحَدًا فَلَا تَدْخُلُوهَا حَتَّىٰ يُؤْذَنَ لَكُمْ وَإِنْ قِيلَ لَكُمُ ارْجِعُوا فَارْجِعُوا هُوَ أَزْكَىٰ لَكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ﴾ (1)

(1) سورة النور، الآيتان: 27، 28.

1 - لم يحد الدرس عن المقدمة التنبيهية المصحوبة بصفة الإيمان المحبّبة للنفس؛ ليسوق المطلوب في إطار السلب المقيد بغاية.

والسلب، هدم لواقع قد فسد؛ ليأتي من بعده بناء جديد صالح مشحون بالأنس والسلام؛ لذلك كان التعبير بالاستئناس مشعراً بالأنس الذي يغمر القلب، فيخفّ أهل البيت مرحبين بزائرهم وملء أفئدتهم البشر والحبور.

2 - فالاستئناس، إذن، جواز يبيح لك أن تمرّ وأنت تحسّ بالأمن؛ لأنه استئذان رقيق لطيف يزيل الوحشة التي ربما يأتي بها الطارق.

3 - وإذا لم يكن هناك استعداد للاستقبال: فلا حرج على أهل البيت أن يبدوا عذرهم فلهم ظروفهم الخاصة ﴿وَإِن قِيلَ لَكُمُ ارْجِعُوا فَارْجِعُوا هُوَ أَزْكَىٰ لَكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ﴾

فلا تثريب على أهل البيت إن قالوا لزائرهم إرجع، وليس من خلق القرآن أن يكره الزائر كلمة «إرجع» أو يستاء مما يدل عليه تلميحاً أو تصريحاً.

وليس كذلك أن يؤوب وفي نفسه شيء من الموجدة على أخيه؛ لأن المسلم نظيف القلب، صريح اللسان، كما أراده المنهج القرآني الذي يهدف في تفاصيل درسه إلى ترسيخ الوئام في واقع الإنسان، حتى لا يقرر مبدأ هو في واقع البشر وهم وخيال.

فهو لا يريد أن يستخفي أحد من الناس ولا يستخفي من الله خالقه. ولا يودّ أن يكون للمسلم باطن يدسّ بين طياته ما لا يظهره حتى لا ينضم إلى قائمة المنافقين.

والله لا يستحي من الحق

وينتقل التوجيه إلى بيت النبي صلوات الله عليه، ليلفت الانتباه إلى أن هناك مفاهيم جديدة وسلوكاً يجب أن يراعى، وطرقاً ذات صنوف من اللياقة

والآداب العامة ينبغي أن تدخل حياة المسلم ليؤلف منها منهجاً يسير على ضوئه ويعمل بهديه، ليكون في محيطه ممدوحاً وفي واقع أمته فرداً صالحاً، وعضواً نافعاً.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ إِلَّا أَن يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَىٰ طَعَامٍ غَيْرَ نَاظِرِينَ إِنَاهُ وَلَٰكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَادْخُلُوا فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَانتَشِرُوا وَلَا مُسْتَأْنِسِينَ لِحَدِيثٍ إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ يُؤْذِي النَّبِيَّ فَيَسْتَحْيِي مِنكُمْ وَاللَّهُ لَا يَسْتَحْيِي مِنَ الْحَقِّ وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعًا فَاسْأَلُوهُنَّ مِن وَرَاءِ حِجَابٍ ذَٰلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ وَمَا كَانَ لَكُمْ أَن تُؤْذُوا رَسُولَ اللَّهِ وَلَا أَن تَنكِحُوا أَزْوَاجَهُ مِن بَعْدِهِ أَبَدًا إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ عِندَ اللَّهِ عَظِيمًا ۝ إِن تُبْدُوا شَيْئًا أَوْ تُخْفُوهُ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا﴾[1].

1 - تأتي مقدمة الدرس مألوفة - كما سبق - لتنبّه وتوقظ وتشوق، فتساق بأسلوب يحمل التودّد والتلطّف؛ لتضع المخاطبين في من تفرض عليه صفته أن يستجيب لما يُدعى إليه وتترك ما هو غير لائق من عادات في حياته الجديدة التي أرسى قواعدها ربُّ العالمين؛ ليكون المؤمن سويًّا في خلقه، سويًّا في فكره ونفسه، سويًّا في جسمه وروحه.

2 - وفي جو المقدمة نجد التوجيه الإلهي يتجه مباشرة إلى ترسيخ المعلومة بطريقة النهي التي تعني السلب ثم الانتقاض بـ «إلا» ليأتي من بعدها التعقيب بالإذن صريحاً من رب البيت.

وإن تقرير الحقيقة بهذا الأسلوب قد أكسبها قيمة ذات إيحاء نفسي عميق حيث بُدىء بالمطلق، ثم انسحب القيد في توضيحه متدرّجاً، ولا مراء في أن مثل هذا الأسلوب أوقع في النفس من حيث تصعيد عامل التشويق إلى البديل المنتظر.

---

(1) سورة الأحزاب، الآيتان: 53، 54.

ولا سيما أن الإذن هذه المرة يأتي مشوباً بالدعوة إلى الطعام؛ لذا كان الدرس صريحاً في تسليط الضوء على المشهد بصورته ذات الحركة الحيّة: تبرز الذين ينتظرون نضجه، وقد استمرأوا القعدة، والتصقوا بالأرض، واستطابت نفوسهم ذلك الجو المريح.

3 - ثم تجيء اللقطة الحاسمة؛ ليضع الدرس من خلال ومضتها اللبنات التربوية مرتبة متعاقبة بشرطها في تقارب زمني دقيق يدعو إلى شدّة الانتباه وخفة الحركة والتيقظ الذكي اللّبق انسجاماً مع مشاعر الآخرين، لتكتمل دائرة الخلق الكريم، بسموها ورفعتها وبعدها عن كل ما يشين من مغريات الاسترخاء والكسل، كالاستئناس الذي يؤذي النبي صلوات الله عليه.

وهناك فرق بين أن يكون الاستئناس سبباً في إيذاء الآخرين، أو أن يكون دافعاً لتقوية روابط المودّة والإلفة، وتوطيد العلاقات الأخوية بين الزائر والمزور.

4 - ويمضي الدرس فيضع الحاجز الذي يضبط بدقة كيفية التعامل حفاظاً على سلامة بناء الأسرة وضماناً لبقاء سياج العفة شامخاً بطهره نقيًّا بصفائه.

فطهارة القلوب إنما هي الحجرة الأولى التي تقام عليها المؤسسة التربوية. ولكي تشع بنور هذا الطهر، فلا بد، إذن، من التزامها بتطبيق القواعد التي أرساها المنهج القرآني في محيط الأسرة والمجتمع ثم الأمة، في اتساع دائرتها، حيث تستقرّ في نظام الحياة الخاصة والعامة، يمارسها المسلم كقانون نافذ في يومه وغده حتى لا يقع في حرج الشبهة الذي لا مكان له في المجتمع النظيف الطاهر. حيث ينمو نموه الطبيعي في ظل المناعة الأخلاقية ضد أي مرض اجتماعي يتسرّب إليه عن طريق العدوى، وافدة أم قاعدة؟

فالخضوع في القول مُغرٍ يغرّي مرضى القلوب الطامعين. ولأن المجتمع لا يخلو من الذين في قلوبهم مرض، كان العلاج في اتجاهه الهادف اتّجاهاً مباشراً لاستئصال السبب ووأده في مهده حتى لا تبقى للشر جذور.

فالقول باق، لأنه ليس في الإمكان أن يتصوّر أحد إطلاقاً حياة بدون قول، وإنما الحياة بقولها.

ولكن أحداً لا ينكر أن للأخلاق الكريمة حدوداً تقف عندها تصرفات المؤمنين، حيث يستلهمون من إشاراتها محاسن الأعمال، ويستوضحون بقبساتها مواقع أقدامهم حتى لا تزل:

لينطلقوا وملء صدورهم شفاء بخلق القرآن، وليس في قولهم خضوع، ولا في حديثهم خنوع بل قوة في القول، وقوة في العمل، وقوة في الفكر والنفس معاً؛ لأن الله الذي خلق الإنسان إنما خلقه فأناط به مسؤولية بعد أن أودع فيه الاستعداد لأهلية تحمّلها فنال بذلك التكريم على سائر المخلوقات من ذي حياة أو غير ذي حياة:

﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي ءَادَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾[1].

القيمة التربوية المستخلصة مما تقدم:

1 - إن للمنزل حرمة، وللأسرة نظاماً، والعلاقة الطيبة التي تنشأ بين الأفراد في مثل هذا المناخ إنما ترجع في أصلها وجوهرها إلى مصدر الأخلاق الكريمة التي ارتضاها الخالق لخلقه؛ لينظموا مسيرة حياتهم.

2 - إن للتربية بُعْداً مكانيًّا. فمن مدرسة البيت وبين جدرانه تبدأ، حيث النموذج الصالح والقدوة الحسنة والأمثولة الطيّبة، يحياها المُربِّي مُثُلاً حية تسعى بنورها يتبادلها الأحياء ويتناقلونها قيماً رفيعة.

ولا يكفي أن تبقى هذه الأخلاق الكريمة منطوية داخل نفسية الفرد أو تجمد بين جدران البيت، وإنما المطلوب أن تمتدّ بخيوطها فتغطّي ساحة الأمة مكاناً وزماناً عبر المساحات أفقيًّا ورأسيًّا معاً.

(1) سورة الاسراء، الآية: 70.

ولا يكفي أن تقف دون أن تدفع بقوتها أفراد المجتمع إلى نيل أرقى مستوى من العلم في مختلف مجالات الحياة؛ لأن الأمة لا يمكن أن تحقق ما تصبو إليه من رقي إلا إذا سارت متزنة القوام، حيث تأمن عثار الطغيان فتجد ـ بجدها في رحاب الخلق الكريم ـ ما يساعدها على أن تمسك بخيط الصعود، إمعاناً في حفظ التوازن الذي لا يقر شدة الجذب، كما لا يقر لين الإرخاء.

4 - توقير الرسول صلوات الله عليه، وتجنّب ما يؤدّي إلى الخروج عن دائرة الأدب التي رسمت مظاهرها بطريقة عملية تطبيقية.

فقد جرت حوادث المخالفة والخطأ مصحوبة بلفت النظر والانذار وطلب الكف عن ممارستها مع الإشارة إلى البديل والاتجاه السليم، من حيث تحسين العلاقة بين المربّي الذي من مهمته الدعوة إلى مكارم الأخلاق.

والمُربَّى الذي يقف وهو يحسّ بحاجته الماسّة إلى أن تتشرّب نفسه عمليًا رحيق هذا الخلق العظيم. ولكي تتم عملية التشرّب هذه، فلا بد من تهيئة الوعاء الزمني لعرض المشهد بكل حركته التصويرية.

فهذا نداء يصدر من وراء الحجرات مزعجاً نابياً مقتحماً هدوء البيت وأمنه.

وذاك صوت يرتفع عالياً فيغلق بصداه الآذان ويؤذي المشاعر.

وآخر يجهر بالقول في انفلات غير مميّز ولا مقدر لما ينبغي أن يراعى في مثل ذلكم الموقف من حسن اللياقة وجمال الأدب.

ومن يصدر حكمه في سبق وتسرّع بغير أن يتحرّى الحقيقة، أو يتروى في عرض أي خبر من الأخبار التي قد تأتي بها هواتف الخيال والوهم.

وربما لا يغرب عن الأذهان وجود مثل هذه الصور في حياتنا الحاضرة. فكثيراً ما نرى ذلك في واقعنا. ولا يندر أن نشاهدها في مجالسنا الخاصة والعامة. ورغم إدراكنا الجازم لمثل هذه الأخطاء، فإننا نجد أنفسنا عاجزين ـ

فـي كثير من الأحيان ـ عن تعديـل ما يجب تعديـله وفق ما يهدف إلـيه الـمنهج القرآنـي من توجيهنا إلـى اتبـاع أفضل الطرق وأجمل الأدب فـي ما يتعلق بأسلوب نقاشنا لقضايانا الاجتـماعية، أو فـيـما يخص ما نتناقله من أخبـار شفـاهة لترسلها الألسنة بعد تلقـفها، مزيفة مزخرفة لتستقر، وقد بـادر سامعوها ـ إلا قلـيلاً منهم ـ بتصديقها دون أن يدعوها تـمر علـى مِسْبـار عقولهم.

﴿* يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ① يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَنْ تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ② إِنَّ الَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَاتَهُمْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَىٰ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ ③ إِنَّ الَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِنْ وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ④ وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا حَتَّىٰ تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ⑤﴾(1).

وتنطلق ومضات الـمنهج القرآنـي لتغمر قاعة الدرس بعد أن سجل لكلا الفريقـين موقعهما، فرغب أعمق الترغيب وأنذر أعظم الإنذار ثم أوضح أن التقوى لا تـمسّ قلب الـمؤمن إلا إذا اختبر وامتـحن لـيتّسع ـ بإعداده ـ لفـيض هذه الكلـمة: كلـمة التقوى التـي يستـحقها من سعى لها سعيها وجد كادحاً حتـى التقـى معها علـى درب العمل الصالـح.

فـالتقوى هي التـي تصوغ الـمؤمن لـيكون مؤمناً فـي نظره إذا نظر، وفـي سمعه إذا هو سمع.

وفـي حديثه إذ تـحدّث جهر به أم أسرّ؟

فملء سمعه إيـمان، وملء بصره كذلك، حتـى فـي جلسته يتـخيّر الـجلسة الـمؤمنة حيث يحتفـى به كمؤمن ملتزم بآداب الإسلام لـيكون أهلاً لكل توقـير وتبجيـل.

---

(1) سورة الـحجرات، الآيات: 1-5.

فلا إشراقة لمجد، ولا تألق لتقدم إلا في أحضان الأخلاق الكريمة:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُوا فِي الْمَجَالِسِ فَافْسَحُوا يَفْسَحِ اللَّهُ لَكُمْ وَإِذَا قِيلَ انْشُزُوا فَانْشُزُوا يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ۝ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نَاجَيْتُمُ الرَّسُولَ فَقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَةً ذَلِكَ خَيْرٌ لَكُمْ وَأَطْهَرُ فَإِنْ لَمْ تَجِدُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾[1].

1 - في قاعة الدرس يُنادي المؤمنون النداء الذي تتعلّق به النفس المطمئنة وترتاح إليه وتألفه شغوفاً متلهفة لسماعه؛ لأنه كلما تكرّر في عودته الميمونة أتى بالجديد المحبّب واللذيذ الممتع.

إنه يبعث في نفوسهم العزّة يتتبّع خطاهم خطوة خطوة، هناك يضع لهم الطريقة العملية لتنظيم صفوفهم عند لقاء الأعداء.

أما هنا فإنه ينتقل إلى لون آخر من التنظيم في مجالس العلم والأنس، يعلّمهم كيف تكون الفسحة في النفس قبل أن تكون في المكان؟

إنها فسحة التسامح والإيثار، بها تسري روح المودّة بين أفراد الجماعة.

2 - إن المبادرة بتنفيذ الأمر إنما تعني الطاعة العملية التي تقابل بالفسحة الإلهية ﴿يَفْسَحِ اللَّهُ لَكُمْ...﴾ أكرم بها وأعظم!

وفيم؟ ولمن؟

إنها للذين تخلّصوا من أنانيتهم، فجعلوا من قلوبهم أوسع مكان لإخوتهم الذين يفهمون أن الحياة إيثار وبرّ، ويفقهون أن البرّ لا يقف بمفهومه عند تولية الوجوه قبل المشرق والمغرب، فهو ليس مظهراً وحركة وشكلاً وصورة.

ولكنه إيمان يتغلغل في أعماق النفس ونور يقذف في القلب فيفيض عملاً في حياة الفرد والمجتمع. إن حقيقة البرّ هي خشوع وانقياد في صلاة هي

(1) سورة المجادلة، الآيتان: 11، 12.

ليست بحركات الجوارح يمنة ويسرة، وإنما هي صلاة ذات حركة حية واتجاه واستشعار لعظمة خالق الكون وأثر يُبرز النقطة التي تلتقي فيها القيم الروحية بمجالات الحياة، حيث يتجدد من خلال هذا اللقاء المستوى الأخلاقي فيما يؤدّيه الفرد من عمل صالح.

3 - وإذا اقتضت دواعي التنظيم أن يتخلّى المسلم عن مكانه لأخيه، فإن عليه أن يغتنم فرصة الظفر بالمكافأة المجزية؛ ليرتفع شأنه عند الله وتعلو درجاته جزاء تواضعه.

والمنهج القرآني، عندما يرسم خطوط الإجراء التنظيمي لحلقات الدرس، إنما يقصد من وراء ذلك ترسيخ الحقائق التالية:

1 - أن يحيي في ضمير الفرد والجماعة النزعة الإنسانية عن طريق تربية النفوس وتهذيبها حيث يربط بين تقديم المعلومة والمكافأة لتتم عملية الاستجابة في جو من الارتياح وحسن القبول.

2 - أن يعلم المؤمن أن العلم ليس حشواً للمعلومات بمعزل عن السلوك والتطبيق العملي، ولكنه حقائق تحيا لتحدّد الاتجاهات وتكسب المهارات.

3 - أن يتجنب المؤمن ذو الخلق الكريم مزاحمة أخيه، لا سيما في حلقات التعلّم وأماكن العبادة التي يتبادر إلى أذهان البعض أن المزاحمة مطلوبة في مثل هذه المواقف مع أنها إيذاء مُنهى عنه وصورة مُنْفِرة تتنافى وخلق القرآن.

درس المناجاة:

درس المناجاة أو الدرس الخصوصي قد يبدو شبه بين هذا وذاك، غير أنه في كل الوجوه لا يُرى وإن يكن في بعضها اختلاف، فإنه قد يلحظ في الوسيلة والغاية معاً ويلحظ كذلك في الرفعة والضعة.

وفي ساعة اللقاء تلك وساعات الدرس الراهنة في عصرنا الحاضر.

وإذا انتقلنا في رحلة ذهنية عبر المسافة الزمنية، تمثّلنا المشهد وهو يزخر بالحياة والحركة بالصوت والصورة، تمثّلناه يتّسع لكل الأسس التربوية وهي تمارس عمليًّا من خلال تلك المواقف حيث يسعى المؤمن جادًّا، ملتمساً الانفراد بالنبي صلوات الله عليه، يودّ متلهفاً ليناجيه في شأن من شؤونه الخاصّة ليحظى بتوجيهاته ويتلمّس الرشد في رأيه والسداد في نصحه في خلوة، بعيداً عن جو الدرس العام الذي لا يخلو، ربما من بعض التهيّب البريء، ولكن ليس من حق الفرد أن يستأثر بوقت هو ملك للجماعة، وإن كان له في مجموعه مشاعاً دقائق معدودة.

أما أن يشعر بقيمة الوقت كما يشاء وأن يتدرّج معها في عظمتها كيفما يروق له؛ فهذا أمر لا يحق لأحد إنكاره، وليس من المسموح أن يعترف به للآخرين ما دام قد تربطه بهم أواصر، هي بعرى الأخلاق الكريمة موصولة.

وبهذه الاعتبارات مجتمعة قرر المنهج القرآني تأدية مبلغ من مال الذين يودّون حضور درس المناجاة صدقة يأخذها من هو في حاجة إليها حقاً معلوماً، ترسيخاً لقواعد الألفة والمودّة بين أفراد الجماعة وتطهيراً للنفوس من سخائم البخل والشحّ.

﴿فَقَدِّمُواْ بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَةً ذَٰلِكَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَأَطْهَرُ فَإِن لَّمْ تَجِدُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾(1).

أما من لم يجد ما يقدمه: لضيق ذات يده فإنه يعفى ولا حرج مع بقاء حقه مضموناً مكفولاً فيما يرغب فيه من مناجاة الرسول صلوات الله عليه، فلا يكلّف ما لا يطيق، ولا يحرم من حق تمتّع به غيره.

(1) سورة المجادلة، الآية: 12.

وهذا قمة التيسير في مجال التربية، وقمة العدل الاجتماعي، وقمة التسامح وغيرها من القمم الشوامخ التي وسعتها جميعاً مغفرة الله ورحمته.

وليهتدي بنورها المؤمن ويتعلّمها من خلال ما يبذل من جهدٍ مضنٍ في سبيل استيعابه لتلك القيم التي يتلقاها وهو في قاعة الدرس، إذ أن الوسط الاجتماعي هو المحكّ الحقيقي والتربة الخصبة التي تتوافر بين ذراتها عناصر التغذية السليمة لنمو نبتة الأخلاق الكريمة.

﴿ءَأَشْفَقْتُمْ أَن تُقَدِّمُوا۟ بَيْنَ يَدَىْ نَجْوَىٰكُمْ صَدَقَٰتٍ ۚ فَإِذْ لَمْ تَفْعَلُوا۟ وَتَابَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ فَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾[1].

1 - ويتدرّج الدرس في علاجه لقضية صدقة المناجاة، فيعفى من لم يجد، حيث يبقى من بيده يؤدّي كلما سنحت له فرصة اللقاء منفرداً برسول الله صلوات الله عليه؛ لأن الدرس يريد أن يتعلّم المؤمنون أن للوقت قيمة، ويريدهم أيضاً أن يفقهوا أن مهمة الرسول أجلّ وأعظم من أن تكون في لقاء عابر بفرد.

2 - إن الخوف ليتسرّب إلى نفوس المؤمنين كلما تجدّد اللقاء من أن أمر الصدقة قد يشقّ عليهم ويثقل كاهلهم فلعلّ عبئه مرهق تزيده الأيام وتضاعفه توقعات النفس البشرية، وإنما الله الذي خلقها خبير بخطراتها، عليم بسبحاتها؛ لذا قرّر مجّانيّة درس المناجاة للجميع ليزيل أسباب الخوف ويقتلع عوامل الإشفاق ويوجّه إلى ما يطهّر القلب.

يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر

ومن أبرز سمات المنهج القرآني التيسير وتجنّب الحرج؛ ليقبل المؤمن ممتثلاً وهو يحسّ بأنه يعمل باختياره حرًّا في ظل إيمانه بقدر الله، كما يوقن

(1) سورة المجادلة، الآية: 13.

بأن القدرة الممنوحة له إنما هي هبة من عند خالقه، وبأن الحفاظ على سلامتها أمانة ثمينة يجب أن تصان وأن تحمل لتؤدي طاهرة نقية خالية من كل سوء؛ لأن الله لم يرد أن يرهق عباده ولم يشأ أن يحملهم ما لا يطيقون؛ فقد راعى في تكليفهم مقدار استعدادهم حيث يسير كمًّا وكيفاً وفق ظروف الحياة التي ترسم خطوطها متطلبات المجتمع بفئاته المتنوّعة.

﴿۞ إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَىٰ مِن ثُلُثَيِ ٱلَّيْلِ وَنِصْفَهُۥ وَثُلُثَهُۥ وَطَآئِفَةٌ مِّنَ ٱلَّذِينَ مَعَكَ ۚ وَٱللَّهُ يُقَدِّرُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ۚ عَلِمَ أَن لَّن تُحْصُوهُ فَتَابَ عَلَيْكُمْ ۖ فَٱقْرَءُوا۟ مَا تَيَسَّرَ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ ۚ عَلِمَ أَن سَيَكُونُ مِنكُم مَّرْضَىٰ ۙ وَءَاخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِى ٱلْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ ۙ وَءَاخَرُونَ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ فَٱقْرَءُوا۟ مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ ۚ وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَقْرِضُوا۟ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا ۚ وَمَا تُقَدِّمُوا۟ لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ ٱللَّهِ هُوَ خَيْرًا وَأَعْظَمَ أَجْرًا ۚ وَٱسْتَغْفِرُوا۟ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌۢ﴾[1].

1 - افتتاحية الدرس هذه المرة تنطلق مباشرة من القاعدة التربوية في أسلوبها المشعر بلمسة التخفيف برُواها وبربِّها الذي يشفي عَلة العنت والمشقة، ويقف بالنفس المؤمنة عند الحد الذي يوقظها إلى أن البواعث والأهداف والغايات لا تنفصم بعراها عن الدائرة التي يرسم خطوطها القرآن الكريم.

2 - لذا واكب التوجيه المرحلة التطبيقية ليلفت النظر إلى تحري الدقة في شمولية التطبيق لكل جزء من جزئيات العمل المؤدّي، وكذا الوقت المستنفد؛ لأن أي زيادة أو نقص أنما يؤدّي إلى ترجيح إحدى كفتي التوازن، ثم إلى الخلل الذي يصيب النفس بالوهن؛ لأن النفس طاقة محدودة يدركها الملل كي يعتريها الفتور، فهي كالبدن تملّ فتنشد الراحة وتروم التجديد وتلذّ بالتنويع، وأي إرهاق ضاغط إنما تنعكس آثاره سلباً على مقومات العقيدة.

(1) سورة المزمل، الآية: 20.

وإن الاهمال كذلك؛ فهو يفضي إلى الذبول والفناء. إذن فحاجة العقيدة إلى غذاء ضرورة حتمية، وغذاؤها كزاد مستمدٌّ من العمل الذي لا ينقطع تياره في اعتداله ذي المستوى المتناغم الذي لا نشاز فيه.

وما الزاد؟

إنه العبادة بحركاتها وأقوالها، وبمفهومها الواسع كل عمل صالح يراد به وجه الله.

3 - إن لقيام الليل أثراً بالغاً في تكوين الشخصية وتربية النفس وصقلها وتهذيبها من حيث الإعداد للقيام بالمهمات الجسام.

فالجنوب إذ تتجافى عن المضاجع استجابة لنداء الله ورفضاً لإغراء دفء الفراش إنما تنعم بالروح والثقة، وهذه الثقة تكسبها القدرة على تحمّل المشاقّ والصمود في مواجهة الصعاب التي تعترض سبيل نشر الدعوة. ولكن، ما صلة قيام الليل هذا بتلك الدعوة؟

وبم يتحقق القيام؟

إن الصلة وثيقة، فهي كالمقدمة بالنسبة للنتيجة. فالقيام مرحلة من مراحل الإعداد لبناء الشخصية، ودرس عملي لتوجيه النفس إلى الوعي المستمر بما يحويه المنهج القرآني من أسس تستقطب جميع ميادين الحياة، أسلوباً ووسيلة وتخطيطاً وتنفيذاً. وقيام الليل إنما يتحقّق بترتيل القرآن، وكلمة الترتيل لا تعني في مدلولها اللغوي إلا الترتيب والتنسيق.

وما يُرتّب ويُنسّق فهو واضح بتفاصيله، بارز بمعالمه، لأن الترتيل مأخوذ من رتل فـ «ثغر رتل» بمعنى ثغر مفلج: بين أسنانه شيء من التباعد، ومن ذلك قيل كلام رتل إذا كان واضحاً مفصّلاً؛ لذا كان الأمر بالترتيل ليكتمل الجانب التأهيلي في بداية الدعوة باستيعاب الأسس المكونة لعناصر العقيدة التي تجعل النفس في اتصال مباشر بالقدرة الإلهية وهذا الاتصال الروحي المتمثل في الصلاة إنما يجنّبها الوقوع في دائرة الوحشة والاكتئاب ويبعدها عن مطارق الجَزَع والهلع؛ لأنها بالصلاة لا تعرف اليأس.

4 - ﴿وَطَآئِفَةٌ مِّنَ ٱلَّذِينَ مَعَكَ..﴾(1)

هذه الطائفة هي التي حظيت بشرف المعيّة، ولكنّها معيّة التكليف لا معيّة التبذّل والترف، إنها معيّة الصحبة الدائمة في الامتثال والطاعة، فلا الزمان يقطعها ولا المكان بقادر على فصلها؛ فهي موصولة الحلقات، لأن الطائفة لم تزل باقية وللدرس حافظة، فالدرس في مستوى القدرة التي ينبغي أن تدخر للجهاد بشمولية أنواعه.

كما أن هناك مقتضيات تقتضيها ظروف الحياة ولا سبيل إلى إغفالها. والله لا يريد إلا أن تسير الحياة في اتزانها، لا شطط ولا توقف، حتى يبقى الظهر ولا يستنفد الجهد.

فمن الناس من يسعى في طلب الرزق وهم المنتجون الذين ينهضون بعبء اقتصاد الأمة لحفظ كيانها وصون حريتها.

أما غيرهم من أعجزهم المرض؛ فهم الفئة التي لا قدرة لها على مواصلة القيام. إنها جديرة بلمسة العطف والتخفيف.

﴿وَءَاخَرُونَ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾(2)

إنها الفئة التي تتولى حماية الأرض والعِرض ترسيخاً لجذور العقيدة لتثمر، واستجادة للتنظيم الإلهي الذي أراد من الأمة في واقعها ووُفق معطياتها أن تكون ـ يداً تضع اللبنات، ويداً تصونها، ويداً تذود عنها ذياد الحريص على مكتسباته، المحب لمقتنياته، المتفاني في خدمة أمته وتنمية منجزاته.

5 - ومن أجل ذلك كان التوجيه الإلهي يستهدف إيقاظ العواطف الدينية التي من أهم العناصر وأقواها أثراً في تكوين شخصية المسلم حيث تجعله ذا هدف، سويًّا في شخصه.

(1) سورة المزمل، الآية: 20 .
(2) سورة المزمل، الآية: 20 .

ولقد أفاد «علم النفس» بأن الشخص السوي هو الذي يكون له هدف مقبول اجتماعيًا، تتركّز حوله فاعلياته وتتجمّع وتتوحّد. وإن نمو هذه الشخصية لا يكتمل إلا بالتحدي الدائم لذاتها والعمل على إصلاح عيوبها. ومن الركائز الأساسية التي رسّخها المنهج القرآني في هذا الصدد: **الاستقامة** التي من مقوماتها إصلاح النفس وتزكيتها؛ **والمصدر** الذي لا ينفد مدده في تغذية هذه الاستقامة إنما هو الصلاة، **فهي** التي تخلق في الإنسان عقيدة إطاعة أوامر الله؛ لأنها عن منكر القول وفحش العمل ناهية.

وهي بأقوالها وأفعالها واتصالها المتجدّد إنما تلخّص لنا جميع مكتشفات علم النفس الحديث الذي يقول: «لن يتسنى لنا الحصول على الشخصية الناجحة أو الخلق القويم عن طريق التأمل الباطني الصرف بل عن طريق تدريب النفس وتهذيبها وحكمها والسيطرة عليها».

6 - إن خاتمة الدرس بعد الفراغ من توضيح واقع الأمة بفئاتها تتركّز في عملية التيسير بخفّة لمستها ولطف عبارتها الشائقة ولأنه تيسير لم يكن محدّداً في كمه، بل ترك تقديره اختياراً وتطوّعاً لمن لا يألو جهداً حسب قدرته أن يأتي بشيء ويكون هو نفسه عنه راضياً.

وعقب الأمر بالتيسير تتلاحق الأوامر مترابطة لترسي قواعد التنظيم، وليكون التوجيه الأخير إلى الاستغفار ليشعر المؤمنون بافتقارهم الدائم إلى الله جلت قدرته وليجعلهم يحسون بأن ما يبدر منهم من تقصير فإن لهم في غفران الله ورحمته متّسعاً ولن تضيق رحمته في وجه من جاء من عباده تائباً مستغفراً.

حقيقة الإنسان:

يكشف التوجيه الإلهي حقيقة الإنسان من حيث هو بشر في بشريّته جنفٌ وشططٌ، فيرسم لهذه الحقيقة صورة واضحة بلونها وظلّها وحركتها، ذات تعبير دقيق عن حالتي يسره وعسره، وضيقه وسعته.

إنه ينأى في إعراضه إذا مسّه فيض من خير، ويعود مستكيناً في خضوعه إن

لمسته من الشر لفحة أو من الألم وخزة، ينسى فيوغل في نسيانه؛ لأنه اشتم في نفسه رائحة من غنى، ويطغى في عتوه مدفوعاً بدافع من الغرور الذي يسلمه إلى محفة العجب والاختيال.

ولم يكن الإنسان في مسيرته بقادر على المضي قدماً نحو الهدف المنشود دون أن يمنح من نور الله ما يشدّ رشده ويثبّت خطاه.

وما كان الله يريد أن يغويه أو يضلّه بعد هدي ولكنه الإنسان في طبيعته الكنود الجاحدة.

﴿۞ وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُۥ مُنِيبًا إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُۥ نِعْمَةً مِّنْهُ نَسِىَ مَا كَانَ يَدْعُوٓا۟ إِلَيْهِ مِن قَبْلُ وَجَعَلَ لِلَّهِ أَندَادًا لِّيُضِلَّ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلًا ۖ إِنَّكَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلنَّارِ ۝ أَمَّنْ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ سَاجِدًا وَقَآئِمًا يَحْذَرُ ٱلْءَاخِرَةَ وَيَرْجُوا۟ رَحْمَةَ رَبِّهِۦ ۗ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۗ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾(1)

1 - إن الأقنعة لتسقط عن الحقيقة البشرية فتبرز في غير وجل ولا خجل حين يخدشها شيء من نوائب الدهر وعاديات الزمن ونكبات الليالي، فهي عندئذ تلجأ جزعة إلى ساحة ربها تائبة أوّابة تدعو مخلصة تلتمس النجاة، حتى إذا انكشف الضر ولمست أقدامها برّ الأمان عادت فكان لها مع الله موقف الجحود المنكر.

2 - إن النعمة لتنقلب نقمة على الإنسان ذي الميول المنحرفة، والعقل الجحود بغشاوة الجهل التي تطمس حقائق الأشياء وتجعل من عقله عقلاً لا يرى الأمور إلا من ثقبها البائس الشقي، ولا ينظر إذا نظر إلا بعين تعسة تنقلب به في مهاوي المقت واللعنة، حيث يتخذ من هواه إلهاً، ومن ماله معبوداً، ومن علمه وثناً يجثو تحت أقدامه، ومن جاهه ينسج رداء

(1) سورة الزمر، الآيتان: 9، 10.

يعلو به في سماء الغرور والاختيال، عندئذ ينسى بدايته وتغيب عن إدراكه النهاية التي تنتظره - وهو يتمتع بكفره - وليس عن مصيره ببعيد.

فلهب النار المحرق يستقبله ليكرم وفادته ويحسن صحبته.

3 - أما النموذج الآخر، فهو المثل الأعلى للصلاح الذي تنبثق من شخصيته مجموعة الصفات التي تحدّد أبرز معالم الانقياد والخضوع وأوضح ملامح الحذر والرجاء. إنها تتذكر حين ينسى الآخرون، وتعلم حيث يجهل من ليس له في الدرس نصيب ولا في المعلومة حظ:

﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُوا الْأَلْبَابِ﴾(1)

والتذكّر هو الذي يجعل الإنسان ذا العقل السليم دائم الصلة بربّه لا يحيد عن التعلّق به قيد أنملة، وبهذه الصلة تتحقّق الغايات التي تكتمل بها عناصر شخصية المسلم. فيحيا ضميره؛ لأن الضمير هو الضوء الأحمر الذي يرسل وميضه منطلقاً من أعماق الإنسان الرشيد ليقول له: قف فإن في مواصلة سيرك خطراً ثم يؤنبه على فعل قد فُعل بخطأ هو عن طريق الحق بعيد.

ومن يعش بضمير حي بعقيدته فإنما يتذوق ثمرة السعادة النفسية واطمئنان القلب وشفائه

﴿الَّذِينَ ءَامَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ اللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾(2).

ولقد ثبت بالدليل الملموس القاطع من خلال التجارب في ميدان الطب أن القلق والهم والحزن والكبت تؤثّر تأثيراً مباشراً في الوظائف العضوية وإن هذه الحقيقة قد أكدت من قبل كثيرٍ من علماء التشريح وإن أحدهم ليمضي فيقول:

---

(1) سورة الزمر، الآية: 10.
(2) سورة الرعد، الآية: 29.

«لقد أيقنت أن العلاج الحقيقي لا بد أن يشمل الروح والجسم معاً وفي وقت واحد، وأدركت أن من واجبي أن أطبق معلوماتي الطبية والجراحية إلى جانب إيماني بالله وعلمي به، ولقد أقمت كلتا الناحيتين على أساس قويم.

بهذه الطريقة وحدها استطعت أن أقدم لمرضاي العلاج الكامل الذي يحتاجون إليه.

ولقد وجدت بعد تدبر عميق أن معلوماتي الطبية وعقيدتي في الله هما الأساس الذي ينبغي أن تقوم عليه الفلسفة الطبية الحديثة.

أما إذا أبعد الإنسان ربه عن هذا المحيط؛ فإن محاولاته لا تكون إلا نصف العلاج بل قد لا تبلغ هذا القدر:

إذن فلم البحث المضني، والكد المرهق في طيات الكتب وتجارب الناس؟

وبين أيدينا العلاج الناجح والبلسم الشافي لكل هذه الأمراض النفسية. ففي القرآن الكريم غنًى من الوصفات الطبية التي حث المسلم على أن يلتزم بتعاطيها دون انقطاع ليكتسب المناعة من كل داء، ويعوذ بالله من شر هواجس النفس وطوارق الليل وحبائل الشيطان.

﴿إِنَّ الْإِنسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا ⑲ إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا ⑳ وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا ㉑ إِلَّا الْمُصَلِّينَ ㉒ الَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ دَائِمُونَ ㉓ وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ ㉔ لِّلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ ㉕ وَالَّذِينَ يُصَدِّقُونَ بِيَوْمِ الدِّينِ ㉖ وَالَّذِينَ هُم مِّنْ عَذَابِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ ㉗ إِنَّ عَذَابَ رَبِّهِمْ غَيْرُ مَأْمُونٍ ㉘ وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ ㉙ إِلَّا عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ㉚ فَمَنِ ابْتَغَىٰ وَرَاءَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْعَادُونَ ㉛
لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ ㉜ وَالَّذِينَ هُم بِشَهَادَاتِهِمْ قَائِمُونَ ㉝ وَالَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ㉞ أُولَٰئِكَ فِي جَنَّاتٍ مُّكْرَمُونَ﴾[1].

(1) سورة المعارج، الآيات: 19-35.

1 - يمضي الدرس في دقة توضيحه لنتيجة فحص حقيقة الانسان؛ ليبدو عارياً بخَلْقه حيث خلقت معه جرثومة الهلع منذ البداية لتنمو وتتوالد، فتلتهم كيانه وتمزق عناصر التوازن فيه، ثم تجعله يتأرجح جزوعاً منوعاً يتقاذفه الطمع والشح استجابة لتقلبات الحياة التي لا تستقر على حال.

وهو يتخبّط في هبوط نتيجة استسلامه لمرضه المزمن الذي لم يكن له من علاج يجدي سوى ما يحدده القرآن الكريم من وصفات الشفاء.

وصفات الشفاء:

أولاها: إنها الصلاة بديمومتها التي تجعل من سلسلة نورها للمسلم مدداً لا ينقطع ومن رصيدها عدداً لا ينفد، إنها الصلة المتجدّدة بربّه يلتقي به في يومه بكرة وأصيلاً، وكذلك ما بين البدء والختام.

وثانيها: الاعتراف بحق السائل والمحروم؛ إذ أن في مثل هذا الاعتراف تنمية للروابط الاجتماعية وزرعاً لبذور الراحة النفسية والأمن الاجتماعي، وتغذية لمشاعر الأخوة، وتوطيداً لأركان المودة التي تكسب النفس الإنسانية المناعة القاهرة لنوازع الشح والأثرة.

وثالثها: وهي الركيزة الأساسية في اعتدال وصفة الشفاء ووقوفها رشيقة القوام راسخة الأقدام، لأن المصدق بيوم الحساب إنما ينظر للأشياء بنور الله، ويزن الأمور بميزان المنهج القرآني، حيث يحس بالسعادة حين يقدم لأنه يرى في الإحجام كمداً وشقاء.

ورابعها: إنها الخوف من عذاب الله ومن يخف الله يكن دائماً في حماه، ومن يحمد الله فإنه يحذر الآخرة ويرجو رحمة ربّه ويخشاه ويتّقيه لتخلو نفسه من عقدة الشعور بالذنب وتأنيب الضمير.

وخامس الوصفات: إنما تتعلّق بطهارة المؤمن ونظافته من درن الفاحشة وقذارة الجنس إن وقعت في غير طريقها المشروع فخطورتها عندئذ واضحة

بينة، فلا أحد قط يماري ولا يجادل، ففي نفس كل محاول ألف دليل ودليل.

إنها تدمّر النفس وتزعزع كيان الأمة، وتحطّم أواصر المجتمع وتفتّت وشائج الأسرة.

وسادسها: إنها الدعامة الكبرى التي يقام عليها نظام الأمة؛ لأنها أمانة العقيدة في استقامتها ورعايتها واحتوائها لكل شؤون الحياة، فبها ينتشر الأمن بين أفراد الأمة ويخلو المجتمع من عدوى أمراض الغش والمكر والخداع، حيث تغشاه نفحة من روح الله.

وسابعها: أما القيام بأداء الشهادة في حدودها التي رسمت صادقة مستقيمة معتدلة لا ميل فيها ولا تحريف، فإنما يبلغ بالمؤمن قمة الانسجام النفسي حيث يحس بنشوة الانتصار على نوازع الشَّرِّ ولذة إبداء الحق التي تخترق حجب ظلام الباطل، ثم تنبّه إلى أن للمؤمن ـ بسمته هذه ـ اليد الطولى في بناء صرح العدالة في المجتمع الذي يريده الله ويرتضيه.

والثامنة: إنها الصلاة، وصفة الشفاء التي يعود اليها الدرس ليختم بطاقة الوصفات كما بُدئت دوام في أولها وحفظ في النهاية ليجتمع الاثنان ويقترن الإلفان في تحديد وقتها وتأديتها محفوظة بحركاتها وأقوالها حرصاً على حلقات الصلة النظيفة الطاهرة التي تمنح النفس جرعات الشفاء المتعاقبة سكينة وعافية وفرجاً من كل كرب ونجاة من كل ضيق.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ فِي جَنَّٰتٖ مُّكۡرَمُونَ﴾(1)

ولم نزل نحبو تحت مظلّة وصفات الشفاء التي يمتد ظلها الوارف ليشمل جوانب النفس فيصوغ منها نفساً لها من حظ الكمال البشري أوفر نصيباً وأجمل زاداً.

﴿وَعِبَادُ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمۡشُونَ عَلَى ٱلۡأَرۡضِ هَوۡنٗا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلۡجَٰهِلُونَ قَالُواْ سَلَٰمٗا ﴾ (63)

(1) سورة المعارج، الآية: 35.

﴿وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَامًا ۝ وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا اصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا ۝ إِنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا﴾[2].

1 - إنهم عباد الرحمن قد ورد ذكرهم بهذه الصفة بطريقة الإخبار في افتتاحية الدرس، إنما جاءت بتركيبها الإضافي لتثير الانتباه الواعي إلى إدراك حقيقة العبودية التي تعني الخضوع في قمته المتناهية الناشىء عن استشعار القلب عظمة المعبود.

ثم يأتي التعبير بكلمة «الرحمن» موحياً في صدق ووضوح بإحدى دعائم المنهج التربوية التي تشتقّ من الرحمة في انتظامها وانسجامها وتناسقها في عقد واحد مع العبودية: كن عبداً لمن يكون بك رحيماً. إذن، فالربط هنا قد يبدو رائعاً محكماً. فصفة الرحمن أنما تسع كل معاني الرحمة في شتّى مجالاتها؛ لأنها لله وحده وليست لسواه.

ولا أحد أجدر أن يتفيّأ ظلّها غير عبد تشرّبت نفسه وصفات الشفات.

2 - إن في مشيتهم قبساً من نور الله لا اختيالاً ولا بطراً ولا ضعفاً، ولكنّها المشية التي حدد سمتها الرحمن، ووضع هيئتها بكل مقوماتها وقوامها.

3 - وإن الأرض لتستحق أن يرفق بها، وإن الجاهلين لكذلك. فهم الأجدر بأن يُردّ على خطابهم بهمسة السلام الرقيقة الرائقة لتتم الدائرة الأخلاقية قولاً وحركة، ثم تتدرّج في تساميها لتصل إلى ذروة السلم التعليمي: سلوكاً وعقيدة. حيث تتحوّل عبر محاورها المنتظمة لتُؤكّدَ حقيقة التوسط والاعتدال، لا إسراف ولا تقتير، وإنما الانفاق بصورته المتناسقة التي تجعل محور الارتكاز ثابتاً في بناء الأمة والفرد معاً. فالإسراف داء يصيب الفرد فيفسد نفسه قبل أن يفسد ماله وخلقه.

(2) سورة الفرقان، الآيات: 63-66.

وإن هذا المرض لينتشر فيتغلغل في نفوس الأفراد حتى يصبح المجتمع خاضعاً في حاجته الاقتصادية إلى من يستذله ويسترقّه بالتحكم في حريته.

والإسراف والتبذير صنوان يخرجان من مشكاة واحدة؛ لأنهما إلفان، فكلاهما من وحي الشيطان. كما أن السرف يدل لغة على الضراوة؛ فهو في إصابته ضارّ عنيف، إنما يجهز على النفس والجسم في آن واحد؛ لذلك كان التحذير منه شديداً. فقد كره الله المسرفين وجعل المبذرين إخواناً للشياطين إبرازاً لخطر هذه الفئة على المجتمع، وتنبيهاً لأخذ الحيطة، وذلك باستيعاب المعلومة التي تحدّد مقدار الإنفاق بالدقة الكفيلة بإبقاء كفتي الميزان معتدلة، لا استيفاء ولا خسران.

ولقد حذر القرآن من الإسراف حتى فيما يتعلق ببنية الفرد الجسمية من أكل وشرب فهو قد يؤدّي إلى عبودية مقيتة لأكلة شهية فيظلّ مرتبطاً بمعدته حيث يصير منهوماً لا يشبع وظمآن لا يرتوي، فإذا كان في مقتبل العمر انحرف به شرهه عن جادّة الأخلاق الحميدة، وإن هو قطع شوطاً من عمره انتكس في خلقه فعاش يأكله المرض ويلتهمه القلق والهم.

﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَنفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا ﴿٦٧﴾ وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ﴿٦٨﴾ يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَانًا ﴿٦٩﴾ إِلَّا مَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُولَٰئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ ۗ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٧٠﴾ وَمَن تَابَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَإِنَّهُ يَتُوبُ إِلَى اللَّهِ مَتَابًا ﴿٧١﴾ وَالَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ الزُّورَ وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا ﴿٧٢﴾ وَالَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا ﴿٧٣﴾ وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا ﴿٧٤﴾ أُولَٰئِكَ يُجْزَوْنَ الْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُوا

﴿وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلَامًا ۝ خَالِدِينَ فِيهَا حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ۝ قُلْ مَا يَعْبَأُ بِكُمْ رَبِّي لَوْلَا دُعَاؤُكُمْ فَقَدْ كَذَّبْتُمْ فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَامًا﴾[1].

1 - وتتم وصفات الشفاء بعد أن مر الدرس بحركتي النفس والجسم معاً ثم يشرع بانتظام يركّز على ترتيب السمات التي تكتمل بها تركيبة عباد الرحمن الذين استحقّوا عن جدارة شرف التسجيل في قائمة الرحمن لأنهم لا يتّجهون لسواه، فهو سمعهم وبصرهم، إنه يدهم التي يبطشون بها ورجلهم التي بها يمشون، فهو معهم أينما كانوا وحيثما وجدوا، لا يخرجون عن دائرة الله، في سبيله يجاهدون، وإذا انتصروا كان نصرهم لدين الله.

2 - وإن باب التسجيل في قائمة عباد الرحمن لم يزل مفتوحاً على مصراعيه، يقبل كل من هبّت على ضميره نسمة التوبة فأيقظته من غفوته فجاء يركض يحتمي بحمى الله ويلجأ إلى ساحاته ناجياً من أليم عذابه وشديد عقابه.

3 - ويعود الدرس ليوضح سمة من أهم سمات التربية الاجتماعية، وهي شهادة الزور، تلك الظاهرة الخطيرة التي تؤدّي إلى تضييع الحقوق ونشر الفساد وتفاقم الشر والحقد.

إن عباد الرحمن ليربأوا بأنفسهم عن سماعها فضلاً عن تأديتها؛ لأن لديهم من الأعمال الصالحة ما يصرفهم عن الخوض فيما يلغو به اللاغون، ويهتف به الفارغون من سقط القول وعبث الحديث.

4 - ويتأكد اللجوء إلى الله وترسّخ الصلة حيث يتم الاتجاه المفعم بالثقة والرغبة في تعميم الخير للأجيال المتعاقبة التي تنشأ وهي محضن

(1) سورة الفرقان، الآيات: 67-77.

التربية الإلهية ساعية لأداء الأمانة تنفيذاً لإرادة الله الذي أعدّ لهم أعظم ما يقر العين ويثلج الصدر في غرف الرحمن أعز مكان وأجمل مستقر يستقبلون بالترحاب والتحية والسلام.

5 - وفي الختام لفتة تناسب نهاية الدرس حيث يصدر الأمر الإلهي للنبي صلوات الله عليه، تعزيزاً وتخفيفاً عما يكابده من عناد وجحود، وتحريضاً لمن يتخلّف عن تسجيل اسمه في قائمة عباد الرحمن من أن يبادروا للانضمام قبل أن يسبق عليه القول فيكون من الخاسرين.

﴿ قُلْ مَا يَعْبَؤُا۟ بِكُمْ رَبِّى لَوْلَا دُعَآؤُكُمْ ۖ فَقَدْ كَذَّبْتُمْ فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَامًۢا ﴾(1).

ولم تزل وصفات الشفاء تشعّ بنورها فتغمر بفيضها من يفوز بصدق الإيمان وخشية الله. ومن أجدر بالخشية؟ إنه الله عز وجل؛ لأن الخشية إنما تعني الخوف. والخوف علام؟ أَعَلَى النفس والمال يخاف الناس، أم على الجاه والسلطان يجزعون؟

أم إنهم على الولد والأسرة يشفقون؟ لكنهم على كل شيء عزيز يجلّونه ويقدّرونه ويحترمونه.

فالاحترام إنما هو خيط متين يحكم الربط بين من لا تطيب له الحياة إلا مع الآخرين ومن لا يحيا إلا بإلف يحن إليه ويأنس به.

أما الخوف من القادر القوي فإنه يجعل المرء يدرك مدى عمق الصلة التي تشدّه إلى خالقه بغير انفكاك.

﴿ ۞ قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ۝١ ٱلَّذِينَ هُمْ فِى صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ ۝٢ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنِ ٱللَّغْوِ

(1) سورة الفرقان، الآيات: 77.

مُعۡرِضُونَ ۝ وَٱلَّذِينَ هُمۡ لِلزَّكَوٰةِ فَٰعِلُونَ ۝ وَٱلَّذِينَ هُمۡ لِفُرُوجِهِمۡ حَٰفِظُونَ ۝ إِلَّا عَلَىٰٓ أَزۡوَٰجِهِمۡ أَوۡ مَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُهُمۡ فَإِنَّهُمۡ غَيۡرُ مَلُومِينَ ۝ فَمَنِ ٱبۡتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡعَادُونَ ۝ وَٱلَّذِينَ هُمۡ لِأَمَٰنَٰتِهِمۡ وَعَهۡدِهِمۡ رَٰعُونَ ۝ وَٱلَّذِينَ هُمۡ عَلَىٰ صَلَوَٰتِهِمۡ يُحَافِظُونَ ۝ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡوَٰرِثُونَ ۝ ٱلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلۡفِرۡدَوۡسَ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴾[1].

1 - لقد توّج الدرس بأسلوب يحمل ما يفيد التحقيق والتشويق والإثارة؛ ليكون جوه - بمقدمته هذه - منعشاً للنفس، موقظاً للقلب، محركاً للوجدان، يرسم عنوانه بأجمل صورة وأحسن إطار، وأبدع عبارة، إنه الوثيقة الإلهية والوعد الذي لا خلف فيه، إنهم يفوزون أفراداً كما يفلحون مجتمعاً وأمة. فما من أحد إلا ويود أن يفوز ويفلح في حياته بأبعادها المتعددة. فكلمة الفلاح أثيرة على النفس جميلة في وقعها، فلو قلت لأحد: أنت أفلحت في عملك للاحظت في التو أطيب الأثر وأعمق الارتياح على وجه بادياً؛ لأن النفس - بسجيتها - تطرب للثناء وتهشّ للمديح مثلما تنقبض للذمّ وتكرهه.

2 - لذلك كانت المقدمة حافلة بألوان من التشويق: من وعد وارد في وعاء من التحقيق المؤكد. إلى فوز شامل وفلاح عام يحتوي دروب الحياة الدنيا، ويضم في وقار لبق أودية الحياة الأخرى بكل ما فيها من نعيم مقيم مدخور من قبل الله لعباده المؤمنين.

ومن أجل ذلك كانت صفة الإيمان تحتلّ أرفع مكان؛ لتضع صاحبها في أسمى منزلة: ليكون في موقعه الآمن الذي لا يستطيع أن يتخلّى عنه، فكيف إذن، وهو المؤمن، يسمح لنفسه أن يخلع رداء الإيمان الذي ارتضى أن يكون له ساتراً؟

وما جاء في مقدمة الدرس إنما هو انتزاع للاستجابة وحضّ على الاقتداء

(1) سورة المؤمنون، الآيات 1-11.

بمن توافرت فيهم هذه الصفات التي تبرز كمال المؤمن بملامحه الواضحة وتحدد هويته بسمته العملية التي تجعل منه مؤمناً ينكر ذاته ولا يقبل أن يُرضي غروره أبداً، وذلك بأن يحبّ أن يسمع ثناءً ومدحاً على ما لم يفعل.

﴿لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَا أَتَوا وَيُحِبُّونَ أَنْ يُحْمَدُوا بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا فَلَا تَحْسَبَنَّهُمْ بِمَفَازَةٍ مِنَ الْعَذَابِ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾[1].

3 - السمة البارزة التي تأتي دائماً في مقدمة القائمة فتحتلّ قمّتها إنما هي الصلاة؛ لأنها المظلّة الواقية والقمة العاصمة من كل سوء، الحامية من الأذى، المنجية من الهلاك الماحق. فمن شاء أن ينجو فليحافظ عليها بخشوعها حينما يقف بين يدي الله يستشعر قلبه رهبة الموقف، فيسكن حيث تختفي جميع شواغل الدنيا وتتضاءل كل الحركات إلا حركة الاتجاه إلى الله وحده. فلا لغو في القول ولا لغو في العمل ولكنها الحياة الجادة، حياة البناء والتشييد والرقي والسعي من أجل خدمة الأمة ورفعة شأنها.

لذا نجد القرآن الكريم قد ركّز على الدعوة الملحة فيما يتعلّق بركن الزكاة عقب ذكر ركن الصلاة في الترتيب مباشرة؛ لأنها الدعامة الأساسية التي تنهض على أديمها القاعدة الاقتصادية. ولأنها أيضاً دعوة تحمل في طيّاتها حثّ المؤمن المستمرّ على السعي الدؤوب لتنمية ثروة الأمة وزيادة دخلها. إضافة إلى هذا فهي السبيل الواضح إلى تكوين النواة الأولى في وحدة الجماعة.

4 - وإن من أهم الأسس التي تتضافر على بقاء الأمة قوية متماسكة عفة أفرادها ومحافظتهم على أن يحيوا في نظافة وطهر ليكونوا في مأمن من دنس الفاحشة وخبثها. وقد حدّدت طريقها لتحفظ البيت وتصون للنشء كرامته منذ البذرة الأولى لتنمو في تربتها آمنة تنعم بنقاوة الأصل وصفاء

(1) سورة آل عمران، الآية: 188.

النسب حيث يحسّ الطفل بأن دم البنوة يسري في كيانه رائقاً بمعرفة انتمائه إلى أب يعتزّ به ويفخر بأنه إنما جاء إلى هذا العالم من طريق سمح مشروع واضح المعالم لا التواء فيه، حتى لا تخدش عرضه حقارة الإنكار ولا توجه إليه أصابع الاتهام بجرم هو من اقترافه ـ لا ريب ـ بريء وإذا اختفت هذه الصورة القاتمة من المجتمع حلّت مكانها صورة مشرقة وضيئة تتلألأ على صفحتها معانٍ جليّة من العفاف والطهر.

5 - إن الأمانة لتُؤدى وإنها لتُرعى وإنها لتُحمل ولكن حملها ثقيل يئود من لا يكون لحملها أهلاً وينوء بمن لا تتوافر فيه وصفات الشفاء؛ لأنها أمانة متعددة الجوانب: قد تكون تجاه النفس في شتى نواحيها أو قد تصبح في اتجاهها نحو ذوي القربى لتمتد بعد ذلك فتغطي ساحة المجتمع وشعاب الأمة، أو هي قد تكون أمانة التكاليف بحدودها وتعرجاتها وأسيجتها فمن يتعد حدود الله فقد خان.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَخُونُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ وَتَخُونُوٓاْ أَمَٰنَٰتِكُمْ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾[1].

فالتخلي عن الأمانة في أي اتجاه من اتجاهاتها خيانة لله والرسول، ومن يقعد عن الجهاد لتحقيقها إنما يبخع نفسه قبل أن يهدم بناء أمته.

إنه يخيس بعهد الله الذي لا وفاء به لمن لا أمانة له.

فرعاية العهد شفاء لما في الصدور، وتأدية الأمانة كذلك دواء وامتثالاً لأمر الله الذي خلق الإنسان في أحسن تقويم وأورثه أرغد نعيم.

﴿ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْوَٰرِثُونَ ۝ ٱلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴾[2].

(1) سورة الأنفال، الآية: 27.

(2) سورة المؤمنون، الآيتان: 10، 11.

فـي مـحيط الأسرة:

الأسرة هي الومضة التي تضيء طريق المرء في رحلته الأرضية القصيرة، وهي القبسة الإلهية التي تربط مشاعر الفرد بخيوط نورها فتجعل منه مخلوقاً ذا كيان يحسّ بانتمائه الجيّاش بعواطف الاعتزاز والفخر؛ لأنها المأوى المفعم بدفء المودة وعطر السكن.

ولأنها الملجأ الذي يزخر بعبير الاستقرار والأمن وفوق كل ذلك إنها مكمن الحنان الذي تمتدّ منه اليد الحانية بلمساتها فتزرع في النفس بذور الهدوء والسكينة. وإن المرء ليرنوا ببصره إلى الأفق البعيد أو القريب فلم ير من حوله سوى الذين تشدهم إليه وشيجة القربى وصلة الرحم، وإن هو توهم أن يكون يوماً عنهم مستغنياً، أو أنهم في غنى عنه، فلن يصدق في وهمه، وإن جدّ في طلب المسوغ فليس بواجده؛ لأن المسوغ مفقود، إذ كيف يجرؤ امرؤ أن يتجاوز حدًّا رسمته يد الإله؟ أب يَرْعَى، وأم تحنو، وأخ يذود ويشد من الأزر، وأخت تعطف، ثم زوج تنحني إجلالاً لتحمل هموم الحياة وتخفّف عن كاهل الزوج ما يثقله.

هكذا يمضي الجميع في تناغم وانسجام ويرسم الودُّ قنوات التقدير والاحترام.

ويحدّد المنهج القرآني مسالك العلاقات بين الأفراد، ولكنها العلاقة ذات الإطار العقدي الذي يقف بالمسلم عند نقطة التوجيه التربوي.

فالاختلاف في العقيدة إن أسقط حق طاعة الولدين فإنه لا يسقط حقهما في المعاملة الطيبة والصحبة الكريمة، حيث تبقى صخرة العقيدة صامدة ليكون لها في النهاية النصر المبين.

﴿ وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حُسْنًاۖ وَإِن جَٰهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا

﴿تُطِعْهُمَا إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ۝ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُدْخِلَنَّهُمْ فِي الصَّالِحِينَ﴾[1].

1 - ومن أين كانت البداية؟

إن الدرس ليبدأ جولته من القاعدة لتكون اللفتة منسجمة مع لفتات الإصلاح ذات الحلقات المتماسكة، فتنهض سليمة في نشأتها عملاقة في تحركها ثابتة في خطواتها فقد صدرت التوصية. من الذي أصدرها؟ ولمن وجهت؟

إنها من خالق الخلق قد صدرت رفعة لشأن الإنسان وإعلاء لقدره ليبلغ شأوه في مجال السمو الخلقي ويقف وهو يدرك جيّداً حقيقة الأمومة في قدسية حنانها وصفاء مودّتها عندما تجود بأعز ما تملك في غير تأفّف ولا شكوى.

ويتطلع - وهو يعي معنى الأبوة في كفاحها من أجل إرواء نبتة الجيل المتلهفة إلى بناء المستقبل في تفاؤل وشوق مشرق بنور الحياة المتدفق بالدماء المتجددة بحيوية الشباب وبهجته.

2 - إن الإحسان إلى الوالدين ليقترن - حقاً - بعبادة الله؛ لأن لهما فضل التربية.

فكيف إذن - لا يظفران في حياتهما المدبرة بنظرة عطف ولمسة حنان؟ فما يفعله الابن من بر إنما هو دَين يفي به ولن يفي؛ لأن الدّين باهظ القيمة متنوّع العدد. فمهما عظمت الرعاية ومهما طال السهر على راحتهما فلن يكون ببالغ معشار ما بذلاه من جهد وعرق.

وإن الإحسان ليتّسع في معناه اتّساعاً يشمل كل همسة ولمسة حتى النظرة لا بد أن تحمل ما يعبر - بصدق - عن بالغ التقدير ووافر الاحترام؛ ليشعر

(1) سورة العنكبوت، الآيتان: 7، 8.

الوالدان بأن في كل خفقة قلب هتافاً يشيد بجليل تضحياتهما. وكم يسعدهما أن يبثّ فيهما الإحساس بالثقة التي تجعلهما يعتزّان بأن لهما وزناً كبيراً بين أفراد الأسرة ليريا بعد ذلك دورهما في المجتمع.

ولقد أوضح «علم النفس» بأن للمسنين أمراضاً نفسية تتلخّص فيما يلي:

1 - شدّة حساسيتهم نحو ذواتهم.

2 - إعجابهم بتاريخ حياتهم، وكذلك إعجابهم بجيلهم الذي يعتبر إعجاباً بأنفسهم ولكنه بطريق غير مباشر.

3 - إحساسهم بضآلة حاضرهم بالمقارنة بماضيهم؛ لأنهم يرون في ماضيهم الفتوة والقوة والحيوية والنشاط.

4 - الاهتمام بالأمور العقلية دون سواها، وهذا يعزىٰ إلى أن الذاكرة في مثل هذه المرحلة من العمر تلجأ إلى الاقتصاد فيما يتعلق بالاهتمامات الأخرى التي لا ترى داعي للانشغال بها حتى لا تقع في دائرة الإرهاق.

5 - عدم الاستعداد للتنازل عن آرائهم أو تعديلها والسبب في ذلك أن فكرهم قد تبلور وتحددت آراؤهم حيال الموضوعات العامة.

6 - الشك في نيات الآخرين تجاههم وعدم الثقة بهم.

7 - الإلحاح في الطلب لأنهم يرون في إدبار حياتهم حقوقاً قد تضخّمت يجب أن يفي بها الآخرون، بغير أن يتباطأوا كما ينزعجون إن لم تلب طلباتهم لإحساسهم بأنهم قد أهملوا فلا أحد يعيرهم أي اهتمام.

ولا شيء أقسى على النفس من أن يبقى المرء كالشيء في زاوية الإهمال.

لذا كانت الوصية بالوالدين بالغة الأهمية بتكرارها، فقد تركّزت على العناية بهما، وسجلت بأبلغ عبارة شدة إحساسهما وشفافيتهما إن هما بلغا من الكبر عتيّا حيث تُحذرُ الأبناء أن يتجنّبوا إيذاءهما ويبتعدوا عما يجرح شعورهما ولو بإظهار التضجر والقلق المنافيين للرفق والرأفة.

﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَا أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ۝ وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا﴾[1].

أما إذا تدخل سلطان الوالدين فأضحى حائلاً يدعو إلى الشرك وعائقا يئد كلمة التوحيد في مهدها، عند ذاك فلن يبقى للأبوة سلطان ولا للأمومة برهان، فلا طاعة لمخلوق في معصية الخالق وإنما الذي يبقى هو الجانب الدنيوي ﴿وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا﴾

مصاحبة في الدنيا فقط أما بعد ذلك فإن لكل سبيله الذي هو ماض فيه.

﴿وَكُلَّ إِنسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنشُورًا ۝ اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا﴾[2].

إذن فلا الأرحام بنافعة ولا الأولاد بمنقذين إلا من يأتي ربه وهو يحمل في قلبه طهر العقيدة وإشراقة الإيمان.

﴿وَإِن جَاهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾[3].

لا بد هنا من وقفة تأمّل وتدبّر. إن المشهد المثير حقًّا يشدّ الانتباه ويسترعي النظر صورة بكل محتوياتها تبرز ملامح الصراع النفسي جليًّا واضحاً حيث العقيدة في كفة وعاطفة الأبوة والأمومة في كفة أخرى.

وإن سعد بن أبي وقاص ليرسم خطوط هذا المشهد ويُحَبِّر ديباجته إذ

(1) سورة الاسراء، الآيتان: 23، 24.
(2) سورة الاسراء، الآيتان: 13، 14.
(3) سورة العنكبوت، الآية: 7.

يمضي ينسج خيوط قصّته وهو في صموده ـ الخيط تلو الآخر حتى ينتهي إلى خيط القمة في تاج العقيدة الصامد المنتصر.

إن أم سعد هذا قد أضربت عن الطعام والشراب حتى يعود ابنها سعد إلى دين آبائه وقومه ولكنه يقف شامخاً صامداً متمسّكاً بعقيدته. وتصر الأم في تصميم مستميت حتى تشرف على الهلاك.

ويستغيث الأهل متوسّلين إلى سعد أن يصحبهم ليرى أمه وهي تعاني سكرات الموت لعلّ قلبه يرقّ فيرحم تلك العجوز، بيد أن لسعد قلباً عامراً بالإيمان، الإيمان الذي يفوق في قوّته أعتى المؤثّرات وأقسى المغريات.

لقد رآها سعد ابنها، فدنا منها ورفع صوته لتسمعه قائلاً:

«تعلمين ـ والله ـ يا أمه لو كانت لك مائة نفس فخرجت نفساً نفساً ما تركت ديني هذا لشيء فكلي إن شئت ـ أو لا تأكلي»

ثم أسدلت الستارة وانتهى المشهد، وأفاقت الأم من غيبوبتها عادلة عن عزمها وينزل الوحي يبارك موقف «سعد» ويشيد بعزمه وصلابته في الحق.

﴿وَإِن جَاهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا ۖ وَصَاحِبْهُمَا فِى ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًا ۖ وَٱتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَىَّ ۚ ثُمَّ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾(1).

وتمضي الأيام بسعد وهو خير صاحب متتبعاً سبيل الله، يحسن العشرة، نبيلاً في لقائه، كريماً في معاملته، وفيًّا في عهده.

قافلة الايمان:

وتمضي القافلة تَغُذُّ السير في محيط الأسرة لتحدّد معالم الطريق التي تفضي في غير مشقّة ولا عنت إلى مغانم كثيرة يجد في رحابها المؤمن أرقى

---

(1) سورة لقمان، الآية: 14.

ألوان النفع وأوفر أنواع الفائدة وأجلّ المنح والعطايا؛ لأنه زرع فتعهّد الزرع وانتظر؛ ليكون للحصاد يوم. ورجا مخلصاً لكي يجتمع له في المصرف رصيد، يوم أن تعز الأرصدة وتقل الأزواد، ساعة أن تقطع الوشائج وتنمحي ملامح القربى وتختفي جُسورُ الأرحام.

حينذاك، فلا اعتبار لصحبة هي في الدنيا رذاذ أو سراب؛ لأن لها منتهى تقف عنده، وموقف تحطّ فيه رحالها وتدع في زواياه أحمالها.

فالمرحلة إذن، مرحلة فصل وانتقاء فليس لمن توقع أن يستفيد مغنم، ولا لمن رام الخير في موقع نفع.

﴿لَن تَنفَعَكُمْ أَرْحَامُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَفْصِلُ بَيْنَكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ۝ قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَآءُ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ إِلَّا قَوْلَ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَا أَمْلِكُ لَكَ مِنَ اللَّهِ مِن شَيْءٍ رَّبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ﴾ (1)

1 - حمل الدرس مشعل الهداية والإيقاظ والتنبيه وقد أكّد مؤبّداً ألا نفع يرجى من رحم، ولا فائدة تنتظر من ولد؛ فما في ذلك اليوم من رابطة ترى سوى رابطة العقيدة.

2 - ثم ينبّه الدرس الى أفق من آفاق التاريخ، بعيد بعيد لربط الإنسان تربويًا بأصوله، فيذكّره بأن له ماضياً غنيًا بعراقته وتجاربه المضيئة التي يستمد من فيضها المنهج روافد نهره الزاخر ومعينه الثر. يرشده فيضع يده على حقيقة هي في التاريخ موغلة، ولكنها ذات نور وهّاج يرسل شعاعه فيملأ قلوب المؤمنين ويغمر بفيض سكينته نفوسهم أسوة واقتداء.

3 - إن الإيمان وحده هو الفاصل المميّز إذ لا يلتقي بنوره مع ظلام الكفر. فلا انتماء لقوم ولا حب لولد ولا موالاة لأمة ولكنها العقيدة هي التي تعلو فوق كل الاعتبارات.

(1) سورة الممتحنة، الآيتان: 3، 4.

﴿حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥٓ...﴾[1]

4 - إن الدرس ليلمس بأصبعه حقيقة هي في ظاهرها قد تثير في النفس استفساراً، إنها قد جاءت بصورتها مشرقة: لتضع المعلومة في قالبها التربوي الهادف لتنفذ بعد ذلك في خفة رشيقة إلى مداخل النفس حيث تستقرّ مشروحة بتفصيلاتها التي تزيح الستار ليبقى موقف إبراهيم عليه السلام مع أبيه جليًّا استكمالاً لحلقات الدرس وتتمّة لفصول التجربة. فقد كان إبراهيم عليه السلام يتألّم أشدّ الألم، إذ يرى أباه وقد انضم الى قافلة الشرك في إصرار.

ولكنه من خلال وخزات الألم تلك، كان يتلهّف شوقاً ويرجو متوقعاً أن يرى لأبيه بارقة أمل في رجائه ولحظة إنابة، لعل ذلك الأب يلمح في ثناياها ومضة من ومضات الإيمان فيؤوب تائباً مستسلماً.

﴿إِلَّا قَوْلَ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ..﴾[2]

ويخيب الرجاء، وتتلاشى ذرات الأمل. ولم يجد إبراهيم الحليم المنيب خيطاً يصله بخيط رجائه عندئذ يفوّض الأمر كلّه لله، ويتوجه إليه بالتوكّل المطلق.

﴿وَمَآ أَمْلِكُ لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ ۖ رَّبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ﴾[3].

5 - وينتهي الدرس بخاتمته المؤلمة حيث يمضي الأب في طريقه المسدود تبتلعه ظلمات الكفر غير مبالٍ بما سيلاقيه من عقاب أليم ومصير سيىء.

6 - وقد يكون ولدك فتنة ـ فلا غرابة إنه لكذلك، وإذا حدث ووقع فإن الخطب

---

(1) سورة الممتحنة، الآيتان: 4.
(2) سورة الممتحنة، الآية: 4.
(3) سورة الممتحنة، الآية: 4.

قد يعظم والكرب يشتد؛ لأن من مكمن الأمن قد يطل الخطر، ومن الغصن اللدن الطري قد تمتدّ بالمنشار يد لتقطع جذع الشجرة الوارفة الظل؛ لينهدم البناء هكذا وتسقط الشرفة لتقوّض الأساس.

إن عاطفة الأبوة حين تنطلق مدفوعة بحب الولد في انحرافها لتطغى مدمرة حارقة لنبتة العقيدة خانقة لكلمة التوحيد.

﴿وَاعْلَمُوا أَنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ وَأَنَّ اللَّهَ عِندَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ ۝ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾(2).

إنها الفتنة التي تزحف بعنفها لتلتهم كل طري ويابس، وتلوي أعناق الذين لا ينتبهون إلى منعرجات الامتحان العسير في الولد والمال، فالاغترار بمثل هذه الزينة يقود إلى الوقوع في مهاوي الردىٰ. لذا كان التحذير لا ينقطع بمختلف الأساليب، سلباً وإيجاباً. ثم يعمد الدرس معقباً بندائه الودود الرفيق الذي يبثّ في النفس الأمن والطمأنينة، وذلك بتعليق المكافأة على تقوىٰ الله، فمتى فزت فنلت درجة النجاح واجتزت الامتحان فإنك ستُمنح الجائزة بجدارة، وعندئذ يحق لك أن ترفع رأسك اعتزازاً، وتفخر بأنك عضو صالح بمكانه المرموق في قافلة الإيمان.

﴿وَمَا أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُم بِالَّتِي تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زُلْفَىٰ إِلَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَأُولَٰئِكَ لَهُمْ جَزَاءُ الضِّعْفِ بِمَا عَمِلُوا وَهُمْ فِي الْغُرُفَاتِ آمِنُونَ﴾(1).

وهذه حقيقة يقرّرها الدرس في خاتمته، وهو أن المال والولد إنما هما هبة من الله. غير أن هذه الهبة ليست بذاتها هي التي تقرّب من الله ولكن القاعدة الأساسية التي يبلغ بها المرء قمة النجاح ويعتلي سنام النجاة إنما هي الإيمان الذي يترجمه العمل الصالح؛ ليكون الجزاء مضاعفاً والربح وفيراً.

---

(1) سورة الأنفال، الآيتان: 28، 29.

(2) سورة سبأ، الآية: 37

المراجع

القرآن الكريم

1 - **تفسير القرآن الكريم**، الشيخ محمود شلتوت.

2 - **التفسير الفريد للقرآن المجيد**، الأستاذ عبد المنعم الجمال.

3 - **تفسير المنار**، الشيخ محمد عبده.

التربية وعلم النفس:

4 - **خلاصة علم النفس**، د. أحمد الأهواني.

5 - **اعرف نفسك**، د. فاخر عاقل.

6 - **علم النفس الاجتماعي**، د. سعد جلال.

7 - **سيكولوجية القصة في القرآن**، د. التهامي نقره.

8 - **مواضيع في التربية وعلم النفس**، محمد زهير مشارقه/ يونس ناصر/ جوزيف عبود كبه

9 - **الوعي التربوي ومستقبل البلاد العربية**، جورج شهلا/ عبد السميع حوربلي/ ألماس حنانيا.

10 ـ **لـمـحات فـي وسائل التربـية الاسلامية وغاياتها**، الأستاذ محمد أمين المصري.

11 ـ **الدروس التـي تتعلـمها التربـية من علـم النفس**، برسيفال سيموندز، ترجمة عبد الرحمن صالح عبدالله

12 ـ **الـمعرفة فـي منهج القرآن الكريـم دراسة فـي الدعوة والدعاء**، الأستاذ صابر طعيمه.

13 ـ **روح الدين الاسلامي**، الأستاذ عبد الفتاح طباره

14 ـ **من توجيهات الاسلام**، الشيخ محمود شلتوت.

15 ـ **معالـم الشريعة الاسلامية**، د. صبحي الصالح.

16 ـ **الاسلام فـي حياة الـمسلـم**، د. محمد البهي.

17 ـ **الانسان فـي القرآن**، الأستاذ عباس محمود العقاد.

18 ـ **الفلسفة القرآنـية**، الأستاذ عباس محمود العقاد.

19 ـ **القرآن والقصة الـحديثة**، الأستاذ محمد كامل.

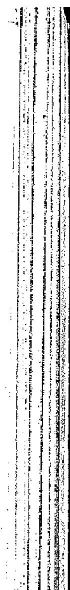
20 ـ **القرآن فـي شهر القرآن**، د. عبد الحليم محمود.

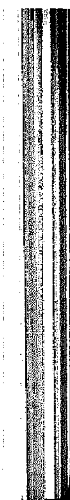
21 ـ **الاسلام والعصر**، د. عبد العزيز كامل.

22 ـ **من بلاغة القرآن**، د. أحمد بدوي.









المؤلف

* من مواليد مصراته بليبيا عام 1933.
* خريج كلية اللغة العربية بجامعة الأزهر عام 1966.
* يعمل كموجه تربوي لمادتي اللغة العربية والتربية القرآنية.
* من تأليفه :

1- في صحبة القرآن.
2- نساء تحدث عنهن القرآن.

هذا الكتاب

كثيراً ممن تناولوا علم التربية والنفس بالدراسة والبحث كانوا مقتنعين بأن وضع قواعده قد تم على يد علماء الغرب، ولم يقف هذا الاقتناع داخل دائرة الباحثين والدارسين بل انتقل إلى أبنائنا الطلبة عن طريق المناهج الدراسية التي ما فتئت تؤكد - بإصرار - بأن فضل السبق كان لأولئك العلماء.

هذا الكتاب يحاول بأسلوب علمي التأكيد بأن مقومات وأساس علم التربية والنفس تنبع من القرآن الكريم وأن القرآن الكريم هو أصل هذا العلم.

دار الملتقى للنشر